كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر

الشعر ديوان علم العرب

مقالاتٌ في التراث

دراسة واختيار
أ.د.المتمرس عبداللطيف حمودي الطائي

تموز / ٢٠٢٣ م　　بغداد　　١٤٤٥هـ

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر

كلية الكوت الجامعة

٨١١ /٩٠٥٦٣٠٧

ط ٢٩٩ الطائي، عبد اللطيف حمودي.

الشعر ديوان علم العرب: مقالات في التراث/ عبد اللطيف حمودي الطائي. - ط١. - بغداد : مطبعة الرفاه ، ٢٠٢٣م.

١٣٠ ص ؛ ٢٤ سم.

١- الشعر العربي - العراق - دراسات- المقالات العربية

أ. العنوان

م. و.

٢٠٢٣ / ٣٦٤٩

المكتبة الوطنية/الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٣٦٤٩ لسنة ٢٠٢٣ م

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-685-54-0

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.

مطبعة الرفاه 07902823204

بسم الله الرحمن الرحيم

{ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }

صدق الله العلي العظيم

سورة يوسف الآية : ٧٦

الإهـــداء :

الى :

محبي التراث العربي الأدبي

المقدمـــــة

المقدمة : الشعر العربي قبل الإسلام يمثل الإرث الخالد ، والأدب التأسيسي ، الذي خلفه لنا الأجداد والآباء ، وهو التراث الناصع ، الذي يعكسُ مكارم الأخلاق عند العرب ، وهو الدال على أنهم أكرم الأمم ، ولغتهم أشرف اللغات ، بدلالة الاختيار الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين مُحمّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) من أمـة العرب ، ونزول الذكر الحكيم (القرآن الكريم) بلغة العرب ، وقد صدق الخليفة عمر بن الخطاب حينما قال (الشعر هو ديوان علم العرب) ، والعرب بصورة عامة يقولون الشعر ، ومن خلال قولهم الشعر دونوا تاريخهم ومآثرهم وأيامهم ، وكل ما يتصل بحياتهم ، ومن أبرز ما دونوه مكارم الأخلاق التي وثقوها بالأشعار ، فعددوا أنواعها ، وقالوا فيها شعرًا كثيرًا ، وفي كلِّ أنواعها وألوانها ، وفي هذا الكتاب الماثل بين أيديكم الكريمة ، جمعتُ ما استطعتُ جمعه من مكارم أخلاق العرب مع شواهدها الشعرية ، واللافت للنظر أنَّ رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) أول حديث نطق به هو ((إنَّما بعثُ لأتمم مكارم)) ليقوم بتهذيبها وتشذيبها ، واسقاط ما يخالفُ منها الدين الإسلامي الحنيف ، كتبت ذلك ليطلع القارئ الكريم على تراث آباءه وأجداده ، وما خلفوه لنا من تراث ثر ، والكتاب يتكون من (١٦) ستة عشر مقالة ، رتبتها حسب اجتهادي ، وهي كما يأتي :

١- تناولتْ المقالة الأولى : الوفاء من مكارم الأخلاق .

٢- فيما تكفلت المقالة الثانية بـ : العهد والوفاء .

٣- وحملت المقالة الثالثة عنوان : اكرام النفس وصونها من الإنحراف .

٤- وجاءت المقالة الرابعة بعنوان : حفظ المودة والمحبة .

٥- وأما الخامسة فحملت عنوان : الإباء وعزة النفس .

٦- وأما السادسة فجاءت تحت عنوان : كثرة السؤل تذهب الحياء .

٧- والسابعة بعنوان : الصبر على الشدائد والتجلد أمام الشامتين .

٨- والثامنة بعنوان :الصداقة والصديق .

٩- والتاسعة بعنوان : قراءة جديدة في مخاطبة العرب للواحد بلفظ الاثنين .

١٠- والعاشرة بعنوان : مكرهٌ أخوك لا بطل .

١١- والحادية عشرة بعنان : حمّادُ الراوية في مجلس المهدي العباسي .

١٢- والثانية عشرة بعنوان : من دلالات المحاورة : المشاجرة .

١٣- والثالثة عشر بعنوان : موازنة بين العقاب والنسر .

١٤- والرابعة عشر بعنوان : موازنة بين ثور الوحش وحمار الوحش .

١٥- والخامسة عشر بعنوان : القطاة : أنواعها وألوانها .

١٦- والسادسة عشر بعنوان : مآلات المخطوط العربي .

وفي الختام أقول أني بذلتُ جهودًا كبيرة في تدوين هذه المقالات توثيقًا لتراثنا الخالد ليطلع عليه الجيل الجديد ، وأرجو ان ينال رضا الجميع ومن الله التوفيق ، فإن أصبتُ فيما كتبت فمن الله التوفيق والسداد ، وإن جانبت الصواب فذلك من تلقاء نفسي الخاطئة ، والحمد لله رب العالمين الذي هدانا لهذا ، وصلى الله تعالى عل نبيينا محمد وأله وسلم تسليمًا كثيرًا .

أ.د.المتمرس عبداللطيف حمودي الطائي

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

المقالة الأولى

الوفاء من مكارم الأخلاق

الوفاءُ من مكارمِ الأخلاقِ

مكارمُ الأخلاقِ هي رأسُ مالِ الإنسانِ السوي ، سواء كانَ ذكرًا أم أنثى ، وفي هذا الصدد لابُدَّ من أنْ أشيرَ الى أنَّ سيدَ الكائنات وأشرفها نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما بُعث رسولاً ليخرج الناسَ من الظلماتِ الى النورِ قال (١) : (إنَّما بعثتُ لأتممَ مكارمَ الأخلاقِ) ، إذاً من كان يتخلقُ بمكارم الأخلاق ، فهو من أهل المروءة ، فالعربُ قبل الإسلام كانوا يمتلكون أنواعًا من مكارم الأخلاق ، ويعرفونها ويعملون بها ، ولكنَّ تطبيق بعضها لم يكن صحيحًا ، فجاء الرسول (عليه الصلاة والسلام) ليتممها ، ويرشدهم الى الصحيح منها ، وذلك بسب العصبية القبلية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية ، والوفاءُ هو أحد المكونات الرئيسة لمكارم الاخلاق التي دعا إليها الإسلام ، وفي هذه المقالة سنقفُ على نماذج وردت في الشعر الجاهلي والإسلامي ، منها قول الشاعر الحارث بن مالك الطائي مفتخرًا بالوفاء للإسلام ولخليفة رسول الله (٢) :

وفينا وفاءً لم يرَ الناسَ مثلهُ وسربلنا مجدًا عدي بن حاتمِ

بعد أنْ ارتدت معظمُ القبائل العربية عن الإسلام ، ورفضتْ تسليم الصدقات لخليفة رسول الله أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) ، وقبيلة طيّء جاءتْ بها طواعية الى المدينة المنورة يحدوها رئيس القبيلة الصحابيُّ الجليل عدي بن حاتم الطائي ، وسلمها الى خليفة رسول الله ، وهي أول صدقة في الإسلام بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيضت وجه خليفة رسول الله ، وبذلك وفتْ قبيلة طيّء ما في عهدتها من أموال الصدقة .

وحينما ضاقتْ الأرضُ بما رحبتْ ذرعاً بالشاعر المشهور امرئ القيس بعد مقتل أبيه على يد ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء ، ومطاردته لمن بقي من أفراد عائلته ، فرَّ امرؤ القيس ، ولكنَّ القبائل العربية امتنعت من اجارته خوفًا من ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء ، فقرر امرؤ القيس السفر الى قيصر الروم ليستمده على المنذر ، ومساعدته في إدراك ثأر ابيه ، واسترداد ملكه المسلوب ، ولكنّهُ كان يُعاني من عقبةٍ كبيرة تتمثل بعائلته وسلاحه وأمواله ، اين يتركها ؟ وعند من يؤمنها ؟ وأخيراً استقر رأيه أنْ يتركها أمانةً عند الشاعر اليهودي

المشهور السَّمَوْأل بن عادياء الذي كان يسكن في الحصن الأبلق بتيماء ، ومن هناك يرحل الى قيصر الروم ، فوصل الخبر الى مسامع الملك المنذر بن ماء السماء ، فأرسل جيشًا الى تيماء لاسترداد ما في أيدي السَّمَوْأل من أمانات امرئ القيس ، وتزامن وصول جيش المنذر بن ماء السماء الى تيماء ومحاصرة الحصن الابلق مع عودة أحد ابناء السَّمَوْأل من رحلةِ طردٍ وصيدٍ ، فألقى قائد الجيش القبض عليه ، وبدأ يساوم ، السَّمَوْأل ويخيرهُ بين خيارين لا ثالث لهما ، أما أنْ يُسلم الأمانات ، وأما أنْ يقتل ولده ، وهنا بدأ الامتحان العسير ، أ يفرط بما استودعت عنده من أمانات ليحافظ على حياة ابنه ، أم يحافظ على الامانات مُضحياً بحياة ابنه ، فكان القرار الحاسم ، أنَّهً لا يسلم الأمانات وليفعل قائد الجيش ما يريد ، فقتل قائد الجيش ابن السَّمَوْأل ، وباء بالفشل وعاد أدراجه خالي الوفاض ، وفي ذلك يقول السَّمَوْأل (٣) :

وفيتُ بأدرع الكندي إنّي إذا ما خانَ أقوامٌ وفيـــــتُ

وقالوا : إنَّهُ كنزٌ رغيـبٌ ولا - والله - اغدرُ ما حييتُ

وهذا الشاعر الأعشى الكبير يحثُ الناسَ أن يتخذوا من السَّمَوْأل قدوةً لهم في الحفاظ على العهود والمواثيق والأمانات والوفاء لها ، وعدم الغدر بها وخيانتها فقال(٤) :

كُنْ كالسّمَوْأل إذْ سـار الهمامُ لهُ في جحفلٍ كسّواد الليلِ جـــرَّارِ

جارُ ابنِ " حيا " لمن نالته ذمتهُ أوفى وأمنعُ من جارِ ابنٍ عمّـارِ

بالأبلقِ الفرد من تيماء منزلـــهُ حِصْنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ غدّارِ

قد سامهُ خُطَّتيْ خسفٍ فقال لــهُ مهما تقلهُ فإنّي سامعٌ حـــــارِ

فقال ثُكلٌ وغدرٌ أنت بينهمـــــا فاختر وما فيهما حظٌّ لمُختـــارِ

فشكَ َ غيرَ قليلٍ ثُمَّ قال لـــــه اذبحْ هديكَ إنّي مانعٌ جـــاري

فيما قال الزبرقان بن بدر (٥) :

وفيتُ بذمَّةِ القيسيِّ لمـــــا تواكلها الصحابةُ والجـــــوارُ

كما أوفيتُ بالعكلي ضرباً بنصلِ السَّيفِ إذْ علن السرارُ

يقول الزبرقان بن بدر استودع القيسيُّ عندي أمانة ، فهجم عليها رجل عُكلي في شلةٍ من اصحابهِ وجيرانهِ ، فتصديتُ لهم وطردتهم ، أما قائدهم العُكلي فقد أشبعته ضربًا بنصل السيف ، لأنَّهُ هو من دلهم على الأمانة ، فانهزمَ خائبًا مذمومًا وفي الوقت نفسه حافظت على الأمانة ، ووفيت للقيسيُّ بما استودع عندي .

أما شاعر العربية الكبير الفرزدقُ ، فقد أشاد إشادة كبيرة بوفاء آل المهلب للدولة الأموية ، مشبهًا وفائهم بوفاء السَّمَوْأل بن عادياء اليهودي ، حينما ضحى بولده ليحافظ على أمانات امرئ القيس ، وذلك حينما مدح سليمان بن عبدالملك عندما تشفعَ لآل المهلب عند أخيهِ الوليد بن عبدالملك حينما فروا من سجن الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقال (٦) :

لعمري لقد اوفى وزاد وفـــاؤهُ على كّلِّ حالٍ آ ل المهلَّـــــبِ

أمرَّ لهم حبلاً فلما ارتقوا بـــــهِ أتى دونهم منهُ بدرءٍ ومنكـبِ

وفاءَ أخي تيماءَ إذْ هو مشرفُ يناديهِ مغلولاً فتىَ غيرُ خائـبِ

أبوهُ الذي قال اقتلوهُ فإنَّنـــــــي سأمنعُ جاري أنْ يُسبْ به أبـــي

فإنَّا وجدنا الغدرَ أعظمَ سُـــبَّةً وأفضحَ من قتلِ امرئٍ غيرَ مُذْنبِ

أما وفاءُ وفاءُ بن زُهير المازني ، فهو من أعلى درجات الوفاء في حفظ الذمار ، فقد حجَّ وفاءُ بن زهير المازني في الجاهلية ، فرأى في منامهِ كأنَّهُ حاضَ ، فغمَّهُ ذلك ، فذهب الى قُسٍّ بن ساعدة الأيادي ، وقصَّ عليه ما رأى ، فقال له : أ غدرتَ على من أعطيتهُ ذماماً ؟

قال : لا

قال : فهل أحدٌ من أهلك ؟

قال : لا أعلم

ولما رجع وفاءٌ من الحجِّ وجد أخاه قيساً قد غدر بجارٍ له وقتله ، فانتضى سيفه ليقتص منه ، فناشده أخوه الله والرحم ، وخرجت أمهما كاشفةً عن شعرِها ، ومظهرةً ثدييها ، تناشدهُ الله في قتل أخيه ، فقال لها : علامَ سمّيتني وفاءً إذ كنتُ أريد أنْ أغدرْ ، ثُمَّ ضرب أخاهُ بسيفه حتى قتله وقال (٧) :

يُناشدني قيسٌ قرابةَ بيننـــــــــا وسيفي بكفّي وهو مُنْجردٌ يسـعى

غدرتَ فما بيني وبينكَ ذِمـــــــةٌ تُجيركَ من سيفي ولا رَحِمٌ تُرعى

سأرحضُ عني ما فعلتَ بضربةٍ عقيمٍ البدي لا تكرُّ ولا تُثنـــــــى(٨)

وأخيراً قال عُبيدُ الرَّاعي النُّميريُّ (٩) :

وإنّي لأحمي الأنفَ من دوُنَ ذمَّتي إذا الدَّنسُ الواهي الأمانةِ أهمدا

بنينا بأعطانِ الوفاءِ بُيُوتنـــــــــا وكان لنا في أولِ الدَّهرِ مـوْردا

إذا ما ضَمِنَّا لابنِ عمٍّ خُفـــــــارةً نجيءُ بها من قبلِ أنْ يتشـــدّدا

يقول الراعي النُميري لنا عزٌّ وشرفٌ كبيرين ، لا نعكرهما بالأمور التافهة بالغدر والخيانة وعدم الوفاء لمن في حمى ذمارنا ، فنحن نلبي طلب الملهوف طالب النجدة قبل أن تأتينا استغاثته .

الهوامش :

١- السنن الكبرى للبيهقي : ٣٢٣ ـ الأدب المفرد للبخاري باب حسن الخلق : ١٠٤

٢- مروج الذهب : ٢ / ٣٠١

٣- ديوانه : ٨٠

٤- ديوانه : ٨٨

٥- حماسة البحتري : ٢١٦

٦- ديوانه : ١٧ ــ ١٩

٧- حماسة البحتري : ٢١٨

٨- أرحض : أغسل

٩- شعره : ١٩٦

المصادر :

- الأدب المفرد – لأبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٧٥هـ .
- الحماسة – لأبي عبادة البحتري ، ضبطها وعلق على حواشيها كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٩٢٩م .
- ديوان الأعشى الكبير – شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، بيروت - لبنان
- ديوان الفرزدق – شرحه وضبطهُ الأستاذ علي خريس ، منشورات مكتبة الأعلمي للمطبوعات ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، بيروت – لبنان .

- ديوانا عروة بن الورد والسَّمَوْأل – دار صادر ، بيروت .
- السنن الكبرى – (سنن للبيهقي الكبرى) – تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، المكتبة الوقفية ، ط ٣ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م ، بيروت .
- شعر الراعي النميري – دراسة وتحقيق د.نوري حمودي القيسي و هلال ناجي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، بغداد .
- مر وج الذهب ومعادن الجوهر – للمسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٣ ، ١٩٥٨م ، مصر .

المقالة الثانية

العهـــدُ والوفـــــاء

العهـــدُ والوفـــــاء

العهدُ والوفاء له ، والالتزام به من أهم سجايا العرب قبل الإسلام ومكارم أخلاقهم ، فقد تعلموها وحفظوها ، وكأنَّهُم رضعوها مع لبان الولادة ، والشعر العربي القديم حافلٌ بها ، فعلى سبيلِ المثالِ لا الحصر قولُ أعشى قيس (١) :

كُنْ كالسَّمَوْءَل إذْ سارَ الهُمامُ لهُ في جحفلٍ كسادِ الليلِ جـــرَّارِ
بالأبلق الفرد من تيماءَ منزلـــهُ حِصْنٌ حصينٌ وجارٌ غيرَ غدارِ
قد سامهُ خُطتي خسفٍ فقال لـــهُ قلْ ما بدا لكَ إنّي سامعٌ حـــــارِ
فقال ثَكْلٌ وغدرٌ أنتَ بينهمـــــا فاخترْ وما فيهما حظٌّ ليختـــارِ
فكرَ غيرَ طويلٍ ثُمَّ قالَ لـــــهُ أقتلْ أسيركَ إنّي مانعٌ جـــاري

مناسبة الشعر معروفة للجميع ، إذ أودع الشاعر المعروف امرئ القيس أمواله وأدرعه وسلاحه عند السَّموْءَل بن عادياء اليهودي في الحصن الأبلق بتيماءَ ، لما عزم الذهاب الى قيصر الروم ليستمده بالمال والرجال ، وعنما عَلِمَ المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بذلك ، وكان المنذر يطلب امرئ القيس ويطارده ، أرسل جيشًا جرارًا الى تيماء لمحاصرة الحصن الأبلق ، لاسترداد أمانات امرئ القيس المُودعة عند السَّموْءَل ، وتزامنَ وصول جيش المنذر بن ماء السماء مع عودة ابنٌ للسَّموْءَلِ من رحلةِ طردٍ وقنصٍ ، فأمسك به قائد جيش المنذر ، وأخذ يساوم أباه السَّموْءَل ، اما أنْ يسلمه أمانات امرئ القيس ، وإلا يقتلُ ابنه ، فما كان جواب السَّموْءل إلا أنْ قال لقائد الجيش اقتله ، فلا أفرِطُ بما اؤتمنتُ عليه ، فقتله والسَّموْءَل ينظر ، فقال السَّموْءَل بعد مقتل ولده (٢) :

وفيتُ بأدرع الكندي إنّي إذا ما خان أقوامٌ وفيـــتُ
وقالوا عنده مالٌ كثيـــرٌ ولا ، والله أغدُرُ ما حييتُ

ومن جميل ما قيل في الوفاء ، قول الشاعر الطائي يمدح عدي بن حاتم الطائي عندما وفى بأموال الصدقات وجاءَ بها الى المدينة المنورة ، بعد أنْ ارتدتْ القبائل العربية عن الاسلام ، ورفضتْ دفع الزكاة ، فقال (٣) :

وفينا وفاءً لمْ يرَ الناسُ مثلهُ وسربلنا مجداً عديُ بن حاتمِ

وفي هذا الصدد أسرد لكم قصة وفاء حنظلة الراهب النصراني مع النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وملخص القصة يقول (٤) : خرج النعمان بن المنذر في رحلة طرد وصيد ، فضل طريقهُ في الصحراء ، فأخذ العطشُ منه مأخذًا كبيرًا ، فقادته فرسه الى بيتِ شَعْرٍ مُنفردٍ في الصحراء ، فاتجه إليه بحثًا عمّا يروي ظمأهُ من شدة العطش ، فاستقبله صاحب بيت الشَعر ، وهو حنظلة الطائي ، فأنزله وأكرمه ونحرَ له شاةً وجعل يحدثه ويسامره ، وهو لا يعرفُ من هو ، لكنَّ النعمان عرفهُ بنفسه ، وأخبره أنَّهُ ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، وطلب منه أنْ يزوره في الحيرة ليكرمه ، ودارتْ السنين والأيام واحتاج حنظلة الطائي إلى الميرة ، فخرج إلى الحيرة ليمتار لأهله ، ولكنَّهُ كان على موعدٍ مع القدر ، إذ كان للنعمان بن المنذر يومان (٥) يوم بُؤْسٍ ويوم سَعْدٍ ، فكان مجيءُ حنظلة في يوم بؤسه ، وهو لا يعرف ذلك ، إذ كان النعمان لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلا قتله ، وفي يوم سعده إلا حباه وأعطاه ، فقال حنظلة للنعمان : حيا الله الملك ! إنَّ لي صبيةً صغارًا لم أوصِ بهم أحدًا ، فإنْ يأذن لي الملك في إتيانهم ، أ أعطه عهد الله أنّي أرجعُ إليه إذا أوصيتُ بهم حتى أضع يدي في يده ، فرق له النعمان فقال : لا ، إلا أنْ يضمنك رجلٌ ممن معنا ، فإنْ لم تأتِ قتلناه ، فنظر حنظلة الطائي في وجوه القوم ، فعرف من بينهم شريكُ بن عمرو سيد بني شيبان، فطلب منه أنْ يضمنه لمدة عامٍ واحدٍ ، وقال في ذلك شعرًا :

يا شريك يا بن عمرو هل من الموت محالَّهْ

يا أخا كُـلَّ مضـــافٍ يا أخا من لا أخا لَـهْ

يا أخا النعمان فك الـ..... يوم عن شيخٍ غلالَـهْ

إنَّ شـــيبانَ قبـــــيلٌ أحسنُ النّاسِ فعالَـــهْ

إلا أنَّ شريكَ بن عمرو الشيباني لم يكنْ رجل المواقف الصعبة ، فلم يضمنْ حنظلة ، فتقدم قُراد بن أجدع فقال : هو عليَّ أصلح الله الملك ! ودارتْ الأيام وانقضى العام والطائي لم يظهر بعد ، فأمر النعمان بن المنذر بإحضار قُراد بن أجدع ليضرب عنقه ، فقال قُراد : ليسَ لكَ علي سبيل حتى نمسي ، فلما أمسوا ، أقبل شخصٌ ، والنعمان ينظر إلى قُراد ، فقال قُراد : ليس عليَّ سبيل حتى يدنو الشخص ! فبينا هُم كذلك إذ أقبل الطائي فقال النعمان : والله ما رأيتُ أكرم منكما وما أدري أيكما أكرم ، لا أكون ألأم الثلاثة ، ألا أنّي قد رفعتُ يوم بؤسي ، وخلى سبيل الطائي الذي قال بعد أنْ عفا النعمانُ عنه ، وعن قُراد :

ما كنتُ أخلفُ ظنَّهُ بعد الذي أسدى إلي من الفعالِ الخالي

إنّي أمرؤٌ مني الوفاءُ سجيةٌ وجزاءُ كُلِّ مكارمٍ وبـــــذالِ

ثم أردف قائلاً :

ألا إنَّما يسمُو إلى المجدِ والعُلا مخاريقٌ أمثال القُراد بن أجدعا

مخاريقٌ أمثال القُراد وأهلـــه فأنهم الأخيارُ من رهطِ تُبعـــا

فقال النعمان لحنظلة : ما حملك على الوفاء ؟ فقال : ديني ، قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية ، قال : اعرضها علي ، فعرضها عليه فتنصر النعمان .

من خلال النصوص السابقة علمنا العرب تحافظُ على عهودها ومواثيقها وتضحي من أجلها بالغالي والنفيس ، فوجدنا السمَّوْءَل ضحى بابنه وفلذة كبده من أجل الحفاظ على أمانات امرؤُ القيس ، والوفاء له بعد أنْ اتمنه على ما يملك ، وذهب الى قيصر الروم ، كما وجدنا قُراد بن أجدع يتكفل بدويًا ، إنْ ذهب في الصحراء سوف لن يعود ، ولكنَّ البدوي حنظلة الطائي عاد ، كان عند حُسن ظنِّ قُراد به عندما تكفله ، وهو لا يعرفه ، كل هذه الأفعال وغيرها ما كانت العرب تحافظ عليها إلا لكي لا ينقطع سبيل المعروف بين الناس ، وتذهب مكارم الأخلاق .

الهوامش :

١- ديوان الأعشى : ٨٨

٢- حماسة البحتري : ٢١٥

٣- مروج الذهب : ٢ / ٣٠١

٤- مجمع الأمثال : ١ / ١٢٣

٥- المحاسن والمساوئ : ٢ / ١٨٢

المصادر:

- الحماسة – لأبي عبادة البحتري ، ضبطها وعلق على حواشيها كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٩٢٩م .
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس – شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- مجمع الأمثال – لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (ت ٥١٧هـ) – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- المحاسن والمساوئ – لإبراهيم بن محمد البيهقي ، تصحيح السيد محمد بدر الدين الحلبي ، مصر ، ١٩٠٦م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر – للمسعودي ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٣ ، ١٩٥٨م ، مصر .

المقالة الثالثة

اكرام النفس وصونها من الإنحراف

اكرام النفس وصونـها من الإنحراف

النَّفسُ البشرية هي العنصر المُضاد للعقل ، ذلك لأنَّ العقل هو سائسُها وكابحُها ، فالنَّفسُ بطبيعتها تحمل الضدين (الخيرُ والشرُّ) ، فقد قال الله سبحانه وتعالى (١) : { ونفسٌ وما سواها ۞ فالهمها فجورها وتقواها } ، لذا علينا معرفة أنواع النَّفس البشرية وأعدادها ، فقد قالوا أنها سبعة وهي كما يأتي (٢) :

١) – النَّفسُ الأمارة بالسوء : وهي التي تحضُ على ارتكاب المعاصي والموبقات والذنوب ، وهي نفسٌ مخالفةٌ للفطرة السليمة التي تدعو الى الخير ، وتحثُ عليه ، قال تعالى (٣) : { إنَّ النَّفسَ لأمارةٌ بالسوء } .

٢) النَّفسُ اللوامة : وهي تمثل الضمير الإنساني الحي ، وكثرة قول : لا اله إلا الله ، وهي تُشْعِرُ صاحبها ، بأنَّها خرجت من نطاق النَّفس الأمارة بالسوء التي محلها في القلب الى النَّفس التي محلها في الروح ، مما يُقَوِمُ سلوك الفرد المسلم ، فقال تعالى (٤) : { لا أقسمُ بالنَّفسُ اللوامة } .

٣) النّفسُ الملهمة : وهي في درجةٍ عاليةٍ ، تريدُ أنْ تسمو بروحِ صاحبها ، وبعلاقتها مع الله الى الدرجات العُلا ، فقال تعالى (٥) : { ونفسٌ وما سواها ۞ فالهمها فجورها وتقواها } .

٤) ٥) ، ٦) النَّفسُ المطمئنة الراضية المرضية ، وهي في المراتب العليا ، وهي النَّفسُ الآمنة التي لا يستفزها خوفٌ ولا حَزَنٌ ، وهي في طاعة تامة لأوامر الله والمحفوفة بعنايته الربانية ، فقال تعالى (٦) : { يا ايتُها النَّفسُ المطمئنة ۞ ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيةً } .

٧)- النَّفسُ الكاملة : وهي التي كمُلتْ على حقيقتها واستقرتْ فيها أنوار القرب من الله سبحانه وتعالى ، وعرفتْ الله حقَّ المعرفة ، وذلَّتْ له ، وخضعتْ لعظمته ، وخشعتْ لجلاله ، والتجأتْ الى جنابه ، وخفضتْ جناحها لهيبته ، وسجدتْ لكبريائه وعزَّته .

بعد أنْ تعرفنا على أنواع النَّفس البشرية ، علينا انْ نعرف أنَّها كريمة على الله سبحانه وتعالى ، وما علينا إلا احترامها واكرامها بما تستحقُ ، فنترفعُ بها

فوقَ العيوب والذنوب والمعاصي والموبقات ، ونحثُّها على طاعة الله وعمل الخير ، نأمرُ بالمعروفِ وننهى عن المنكرِ ، وسلفنا في الجاهلية وصدر الإسلام كانوا يعرفون ذلك ويعدونَهُ من مكارم الأخلاق ، فهذا الشاعر الجاهلي حاتم بن عبدالله الطائي المتوفي قبل الإسلام بأكثر من سبعين سنةً يقول (٧) :

نفسُكَ أكرمها فإنَّكَ إنْ تَهُنْ عليك فلنْ تلقى لها الدَّهرُ مُكْرِمَا

يقول الشاعر حاتم الطائي : إنْ أنتَ لم تحترم نفسك ، فلن يحترمك الناس، فإذا هانتْ عليك نفسك ، ورَضِيتَ لها بما لا تستحق ، فإنَّك لن تجدَ أبدَّ الدّهر من يحترمك ، ويجعل لكَ قدراً بين الناس .

وقريب من قول الشاعر حاتم بن عبدالله الطائي ، قول الشاعر الحكيم صالح عبدالقدوس (٨) :

إذا ما أهنتَ النفَّسَ لم تلقَ مُكرماً لها بعدما عرضتها لهوانِ

يقول صالح عبدالقدوس إذا أنت ألبّسْتَ نفسك ثوب الذُّلِّ والمهانة سوف لن تجد من يحترمك بعد أنْ أهنت نفسكَ بنفسكَ وعرضتها للمذلة والهوان .

وقال الشاعر المري (٩) :

وأكرِمُ نفسي إنَّني إنْ أهنتها وجدُّكَ لم تُكرم على أحدٍ بعدي

يقول : أنا احترم نفسي ولا أعرضُها للمذلةِ والمهانةِ ، ويقسم أنَّهُ لو لم أحترم نفسي وأكرمها ، سوف لن يحترمني أحدٌ بعد أنْ أعرضها للذل والهوان ، ومن طريف الأخبار عن هذا البيت قول الأصمعي : مررتُ بكنّاسٍ ينشدُ :

وأكرِمُ نفسي إنَّني إنْ أهنتها وحقكَ لم تُكرم على أحدٍ بعدي

فقلتُ : عنْ أيّ شيءٍ أكرمتها ، وهذه الكناسةُ على عاتقكَ ؟

فقال : أكرمتها بعدم الحاجةِ إليكَ والى أمثالك .

أما شاعر الحكمة والسلام زُهير بن أبي سُلمى الذي كان قريباً من الإسلام فهو يقول (١٠) :

ومنْ يغتربْ يحسبْ عدُواً صديقهُ ومن لا يُكرمْ نفسهُ لا يُكرمِ

يؤكد زُهير إنَّ من يعشْ غريبًا بعيدًا عن أهله وعشيرته ووطنه ، عليه أنْ يتحلى بالأخلاق الحميدة ، لكي يكسب رضا الناس ، فهو في بلاد الغربة لا يعرف عدوه من صديقه ، وسلاحه الوحيد هو أنْ يحترم نفسه ، ولا يعرضها للمذلة والمهانة ، لأنَّهُ من لا يحترم نفسه فسوف لن يجد من يحترمه .

وقال الشاعر العباسي أبا العتاهية (١١) :

لقد هانَ على النّـــاسِ من احتاجَ الى النّاسِ

فصُنْ نفسك عمَّا كــا.....نَ عندَ النّاسِ بالبـاسِ

يقول أبو العتاهية قد سهل على الناس إذلال من مدَّ يدُّ السؤال إليهم وإهانته ، فأبو العتاهية يطلبُ من السائل أنْ يسمو بنفسه ويصونها من الاستخفاف والذّلّ من خلال حملها على الصبر ، لعلَّ الله يجد له مخرجًا من محنته ، فلا يمدَّ يدَّ السؤال طلباً لقضاء حاجته فيذلُّ نفسه .

وأما الشاعر العرجي عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفّان الأموي القرشي ، وهو أشعر شعراء بني أمية ، فقد كان يطمعُ بمنصب ولاية في خلافة سليمان بن عبدالملك ، وكانت مُنيته أنْ يكون أميرًا على مكة المكرمة ، إلا أنَّهُ لم يظفر بها ، فذهبت الى خاله ابراهيم بن هشام المخزومي ، فقال يهجو خاله(١٢):

كأنّي لم أكُنْ منهم وســـــيطاً ولم تكُ نسبتي في آلِ عمرِو

أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسِـــــــدادِ ثغرِ

وذلك أنَّ العرجي اتخذَ من خاله ابراهيم بن هشام المخزومي وسيطاً عند الخليفة سليمان بن عبدالملك ليوليه إمارة مكة المكرمة ، ولكنَّ خاله بدلاً من أنْ يرشح العرجي لإمارة مكة المكرمة ، رشح نفسه لها وظفر بها ، فقال العرجي البيتين السابقين يهجوه لغدرهِ به وعدم الوفاء على ما تعهد به للعرجي ، وكان العرجي يرى في نسبه للخليفة عثمان بن عفان مؤهلاً لنيل إمارة مكة المكرمة ولكنْ جرت الرياح بما لا تشتهي سفن العرجي .

الهوامش :

١- سورة الشمس الآيتان : ٧ - ٨
٢- صدى البلد : نت
٣- سورة يوسف الآية : ٥٣
٤- سورة القيامة الآية : ٢
٥- سورة الشمس الآية : ٨
٦- سورة الفجر الآيتان : ٢٧ - ٢٨
٧- شرح شعر حاتم الطائي : ١٣١
٨- حماسة البحتري : ٢٤٨
٩- حماسة البحتري : ٢٤٨ ، ولم أقف على اسم الشاعر .
١٠- شعر زُهير بن أبي سُلمى : ٢٨
١١- ديوانه : ٢٢٧
١٢- الشعر والشعراء : ٢ / ٥٧٤

المصادر :

- الحماسة - لأبي عبادة البحتري ، ضبطها وعلق على حواشيها كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٩٢٩م .
- ديوان أبي العتاهية – دار بيروت ، بيروت ، ٢٠٠٣م .
- شرح ديوان حاتم الطائي ، أخبارهُ ونماذج مختارة من أشعاره ، للسيد محمد عبدالرحيم ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- شعر زهير بن أبي سلمى – صنعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق د.فخرالدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، ط ٣ ، بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- الشعر والشعراء - تأليف عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق د.أحمد محمد شاكر ، ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ٢٠٢١م .
- صدى البلد – نت

المقالة الرابعة

حفظ للمودة والمحبـــــة

حفظُ المودة والمحبة

قال ابن سيدة (١) : (المودَّةُ هي المحبة) ، قال تعالى (٢) : { قُلْ لّا أسئلُكُمْ عليهِ أجرًا إلّا المَوَدَّةَ في القُربى } ، وهي تعني الحُبُّ في جميع مداخل الخير ، وقال ابن الأعرابي (٣) : (المودَّةُ : الكتاب) ، مستشهداً بقوله تعالى (٤) : { لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياءّ تلقون إليهم بالمودَّة } ،وقال الطبرسي (٦) : (تلقون إليهم أخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن معاني الودّ : التمني ، قال تعالى (٧) : { يودُّ أحدهم لو يعمَّرُ الف سنةٍ وما هو بمزحزحهِ من العذاب } ، أيّ يتمنى ، والودُّ كلمةٌ مثلثة تقرأ واوُها بالضم والفتح والكسر (وُدُّ – وَدُّ – وِدُّ) ، وفاعلُ الودّ هو الودود ، وهو من أسماء الله الحُسنى ، وجاء في لسان العرب حديثًا لم أقف على قائله : (عليكم بتعلم العربية ، فأنَّها تدلُّ على المروءة ، وتزيدُ في المودة) ، والودُّ صنمٌ كان لقوم نوحٍ (٨) ، ثُمَّ صار الى كلبٍ ، ومكانه بدومة الجندل ، وكذلك كان لقريشٍ صنم يقال له ودٌّ (٩) .

والمودَّة من مكارم الأخلاق ، وكان العرب في الجاهلية وفي الإسلام يتحلَوْنَ بها وقد وردت في أشعارهم على نطاقٍ واسع ، وسنقف في هذه المقالة على نماذج مختارة منها قول أبي زبيد الطائي (١٠) :

منْ مبلغُ قومَنا النائين إذا شحطُوا ... أنَّ الفؤادَ إليهم شيّقٌ ولِـــــــــعُ

فالدّارُ إمّا نأتْ بي عنهُمُ فلهُـــمْ ... وُدّي ونصري إذا أعداؤُهُم نَصَعوا(١١)

أمّا بحدِّ سنانٍ أو مُحَافلَـــــــــةٍ ... فلا فحومٌ ولا وانٍ ولا ضَـــــرِع(١٢)

أخو المحافلَ عيّافُ الخنا أنِـــفٌ ... للنائباتِ ولو أضلعنَّ مُضْطلـــــعُ(١٣)

جمالُ أثقالِ أهلِ الودِّ آونَـــــــةً ... أُعطيهم الوُدَّ منّي بَلْةَ ما أســـــعُ(١٤)

يقول أبو زّبِيد أنا ملتزمٌ بقوة ، بعلاقاتي الأخوية مع الذين تربطهم معي علاقات المودة والمحبة ، وإنْ ابتعدوا عني في السكن المكاني ، فمسكنهم الحقيقي في قلبي ، مودّتي ونصري لهم معقودة ، بالسيف والرمح واللسان ، فانا في مودَّتهم غيرُ عيٍّ ولا ضعيف إذا ما أظهر عدوهم لهم العداوة علانيةً ، فتراني أسرعً لنجدتهم وأدافعُ عنهم كما أدافعُ عن نفسي ، بكل قُواي وما امتلكُ من غالٍ ونفيس ، وبكل ما توسعني به قدرتي البدنية والمادية .

أما الشاعر التميمي أوس بن حجر فيقول (١٥) :

وليسَ أخوكَ الدّائمُ العهدِ بالــذّي يذمُّكَ إنْ ولّى ويُرضِيكَ مُقْبـــــلا

ولكنْ أخوكَ النَّائي ما دُمْتَ آمِناً وصاحبُكَ الأدنى إذا الأمرُ أعْضلا(١٦)

يقول الشاعر أوس بن حجر : ليس من قال أني أودّكَ وأحبك بصادقٍ ، إذا نطق بذلك في حضورك ، وفي غيابك يعدل عنها الى غيرها ، بل أخوك الذّي يودّك هو من يحفظكَ في غيابك قبل حضورك ، ويدافعُ عنك إذا اشتدت عليك الحوادث .

أما الشاعر الأموي معن بن أوس المُزني فيقول (١٧) :

وإنّي أخوكَ الدّائِمُ العهدِ لم أحُــلْ إنْ أبزاكَ خصمٌ أو نبا بكَ منـــزلُ(١٨)

أحاربُ منْ حاربتَ من ذي عداوةٍ وأحبسُ مالي إنْ غرِمْتَ فأعــقلُ(١٩)

وإنْ سُؤتني يوماً صفحتُ الى غـدِ لِيُعْقبَ يوماً منكَ آخرُ مُقبـــــلُ

كأنَّكَ تشفي منكَ داءً مساءَتـــــي وسخطي وما في ريبتي ما تعجَّلُ

وأنّي على أشياءَ منكَ ترينـــــي قديماً لذو صفحٍ على ذاك مُجْمِلُ

ستقطعُ في الدّنيا إذْ ما قطعتنـــي يمينكَ فانظر أيّ كفٍّ تبـــــدَّلُ

الشاعر معن بن أوس يعاتبُ صديقاً له ، سمع منه بعض قوارص الكلام فأجابه قائلاً أنت بمنزلة أخي دومًا ، وإذا جارَ الزمانُ عليك ، وإنْ بعُدَ منزلك عني ، ستجدني ناصرًا لك ، محاربًا من حاربت ، جاعلًا مالي وقفًا ، وتحت تصرفك حتى تتجاوز محنتك ، واذا أتتني منك إساءة فأنّي أصفحُ عنها ، وإنْ كنتَ ترى في إساءتي شفاءً لما في نفسك ، ومع ذلك فأنّي أصفح عن كلِّ سيئاتك ، واذا قطعتْ يمينك حبل المودة بيني وبينك ، فأيَّ يدٍ بعد يدي ستجدها لك عونًا .

فيما قال ربيعة بن مفروم الضبّي (٢٠) :

أخوك أخوكَ من يدنو وترجو مودته وإنْ دُعِيَ استجابا

إذا حاربتَ حاربَ من تُعادي وزادَ سلاحهُ منكَ اقترابـا

يُؤاسي في الكريهةِ كُلَّ يــومٍ إذا ما مُضْلِعُ الحدثانِ نابا(٢١)

يقول ربيعة بن مقروم الضبّي : أخوك الحقيقي من يقتربُ منكَ ، وتأمل نصرته لك فيما نابك من الدهر ، وذلك من خلال استخدامه التكرار اللفظي لكلمة أخوك ، فينصرك على عدوك بسلاحهِ وماله ، ويخففُ عنك آلام المصائب والأحمال الثقيلة التي حلت عليك بتقلب الزمان ، وتغير الحال .

وقال الشاعر عمرو بن شأسٍ الأسدي (٢٢) :

يا أبا الصلتِ لو يُخَبَّرُ ميتاً لفظُ حيٍّ بِودِّهِ أنْ يقـــولا

لتاك اليقينُ أنّي ســـأرعى لك حتى المماتِ وُدّاً دخيلا

يخاطب الشاعر عمرو بن شأسٍ الأسدي صديقهُ أبا الصلت ، بعد أنْ شعر بنوعٍ من تزعزع الثقة بينهما فقال له : لو أنَّ ميتًا نطق ، وخاطب الأحياء، لقال لك أنَّ عَمْرَأ يُحبك ويُودُّك ، وأنَّهُ سيرعى مودّتكَ ومحبتكَ ، ولا يفرط بها أبدًا إلــى أخر يومٍ في حياته .

الهوامش :

١- لسان العرب مادة : ودَّ

٢- سورة الشورى الآية : ٢٣

٣- لسان العرب مادة : ودَّ

٤- سورة الممتحنة الآية : ١

٥- مجمع البيان : ٩ / ٣٤٤

٦- سورة البقرة الآية :٩٦

٧- لسان العرب مادة : ودَّ ، ولكني وجدتُ قولا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول فيه : (تعلموا العربية فإنَّها تثبتُ العقلَ وتزيد في المروءة) الوقف والابتداء : ١ / ٣١

٨- كتاب الأصنام : ١٠

٩- لسان العرب مادة : ودّ

١٠- شعره : ٦٤١- ٦٤٢ ، شعره ضمن كتاب شعراء إسلاميون للدكتور حمودي القيسي .

١١- نصعوا : أظهروا عداوتهم

١٢- محفلة : الحفاوة ، فحوم من فحم : أي لا يستطيع الجواب ، وانٍ : ضعيف ، ضَرِعٌ : ذليلٌ مستكينٌ

١٣- أضلعنَ : أثقلنَ

١٤- بله : دع واترك ، أسعُ من الوسع وهو الإحاطة

١٥- ديوانه : ٩٢

١٦- أعضل : اشتد

١٧- ديوانه : ٩٣ – ٩٤

١٨- حال الشيء : تحول من حالٍ الى حال آخر ، أبزاك : غلبك ، نبا : بعُدَ ، زنبا بك منزلٌ : لم توافقك الإقامة .

١٩- أحبس مالي : أجعله وقفاً لك حتى تجتاز محنتك ، الغرامة : ما يلزم دفعه من المال ويعطى على كُرهٍ .

٢٠- شعره : ٢٥٣ ، ضمن كتاب شعراء إسلاميون للدكتور نوري حمودي القيسي .

٢١- مضلع : الحمل الثقيل

٢٢- شعره : ٩١

المصادر :

- القرآن الكريم .
- ديوان أوس بن حجر – شرح وتحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ديوان معن بن أوس المُزني – صنعة د.نوري حمودي القيس ود.حاتم صالح الضامن ، مطبعة دار الجاحظ ، ط ١ ، ١٩٧٧م ، بغداد .
- شعرُ عمرو بن شاس الأسدي – جمع الدكتور يحيى الجبوري ، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ، النجف الأشرف .
- شعراء اسلاميون – د. نوري حمودي القيسي ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط ٢ ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م ، بيروت .
- كتاب الأصنام - لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي – تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ط ٤ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م ، مصر .

- مجمع البيان في تفسير القرآن – للإمام الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي ، وضع حواشيه وخرج آياته وشواهده ابراهيم شمس الدين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، بيروت – لبنان .
- معجم لسان العرب – لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، د.ت .
- الوقف والابتداء في القرآن الكريم – جمعية القرآن الكريم للتوجيه والإرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م ، بيروت – لبنان .

المقالة الخامسة

الإباء وعـــــــــزة النفس

الإباءُ وعزة النفس

الإباءُ والإباءةُ وعزّةُ من الشمائل الكريمة التي أودعها الله عند الإنسان حينما خلقه ، فالإباء يعني أشد أنواع الامتناع ، فيما تعني الإباءة الكراهة (١) ، أما العزَّةُ فهي الرفعة والمنعة والشدة والقوة (٢) ، فمن هذا المنطلق كان الانسانُ أفضل ما خلق الله ، فقد قال سبحانه وتعالى (٣) : { وخلقنا الانسان في أحسن تقويم } فقد أجمع المفسرون على أنَّ احسن تقويم تعني : إنَّهُ منتصب القامة مديدُها ، وفي أحسن صورة ، سوي الأعضاء حسنُها (٤) ، وهذا تكريم من الخالق سبحانه وتعالى ، فقد خلق الانسان ليكون مصلحاً في الأرض فقال (٥) : { إنَّي جاعلٌ في الأرضِ خليفة } ، والخليفة تعني من ينوب عن الأصيل ، فالانسان الخليفة سينوب عن الله سبحانه وتعالى في إعمار الأرض واصلاحها ، ومادام الأمر هكذا فلابُدَّ للإنسان من مؤهلات تساعده على القيام بدوره على الوجه الصحيح ، فقال تعالى (٦) : { أيحسبُ الإنسان أن يتركَ سدى } ، فمنحه الله العقل ليكون كابحًا للنفس ، لأنَّ النفس ميالة الى اللهو والعبث ، فإذا لم تجد رادعًا يردعها ويصدها ، ويردها الى الصواب ، سولت لصاحبها عمل شيءٍ منافٍ للأخلاق والأعراف ، ومع ذلك فقد أعطى الله الحرية كاملة للإنسان في حياته ، فقال (٧) : { إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا } ، فالعقل هو سائسُ النفس البشرية نحو الصلاح والإصلاح ، لأنَّ النّفس شهوانية تحب الحياة والملذات ، ومع ذلك هناك نفوسٌ أبية تأبى التنازل عن كرامتها وشخصيتها ، لتبقي صاحبها شامخاً ، عالي الشأن ، والعرب بصورة عامة من هذا النوع من النفوس ، ولعل أفضل من جسد هذا المبدأ هو الإمام الحُسين بن علي (عليهما السلام) يوم الطف حينما خذلوه وأسلموه لعدوهِ ، وأصبح مُخيرًا بين الاستسلام والتنازل عن المبادئ التي يؤمن بها أو الموتُ حرًّا في سبيلها فقال (٨) : (يأبى اللهُ ذلك لنا ورسوله والمؤمنون ، وحجور طابت وطهرت ، وأنوفٌ حميةٌ ونفوسٌ أبيةٌ من أنْ نؤْثر طاعة اللئام على مصارع الكرام) ، والأمثلة كثيرة في الشعر العربي فقد ملأت بطون الكتب ، سنقف على طائفة من الأمثلة منها قول زُهير بن جناب الكلبي سيد قبيلة كلب بن وبرة (٩) :

سائل أُميمةَ عني ، هل وفيتُ لها أم هلْ منعتُ من المخزاة جيرانا
لا يمنع الضَّيفَ إلا ماجدٌ بطـــلٌ إنَّ الكريمَ كريمٌ اينَّ ما كانـــــا

تأبى كرامةُ زُهير بن جناب الكلبي ونفسه وعزّتها ، أنْ يهان جاره ويتعرض للذلّ والهوان ، وهو بحمايته ورعايته ، فهو يرى أنَّ التخلي عن حماية الجار والتنصل منها ، خزيٌ وعارٌ على المرء .

فيما قال شيبان بن ضبَّة اليربوعي (١٠) :

إنّي امروٌ من بني خُزيمة لا أقبل ضيمّاً ما لم أقد كلِبا
لستُ بمُعطٍ ظُلامةً أبـــــداً عُجماً ولا اتقي بها عَربـا

شيبان يقول : إنّي رجلٌ معروفٌ ، ومن بيتٍ له مكانته ومنزلته بين القبائل العربية ، لذا فأنا لا أرضى بالمذلّة والهوان ، إلا إذا كنت مكبلًا بالقيود ، وحريتي ليست بيدي ، فأنا أرفض الذلّ والهوان مهما كان مصدرهما ، عربًا أو عجمًا .

أما نُهيك بن أساف الأنصاري فيقول (١١) :

إنّي أبى لي أنْ أُسامَ دنيّةً حسبي وأبيضُ كالشهاب يلوحُ

يقول نُهيك : أنا أترفع فوق الدّنيا والصغائر ، وإنَّ نسبي وحسبي الأبيضين الناصعين مثل الشُهب الناصعة البياض ، يأبيان لي أنْ أعطي الدّنيّة من نفسي مهما كان الأمر .

وهذا الأجدع الهُذلي يعيب على قوم رضوا بالذلّة والمهانة ، واستكانوا لها على الرغم من أنَّهم يملكون الخيل والسلاح للذود عن عرضهم وأنفسهم فقال(١٢):

لحا اللهُ قوماً يُقسرونَ وعندهم جيادٌ ولم يعصبْ بأيديهم قدُّ

الأجدع الهمداني يقول : لعن الله أناسًا يُقْهَرون ويلبسون ثوب الذُّلِ والمسكنة ، وعندهم من الخيل والسلاح ، ما يحول دون تمكن العدو منهم ، فضلاً عن أنَّ أيديهم حرةَ غير مُقيدة ، فلِمَ هذا الخنوع والخضوع ، ولبس ثوب الذلِّ والخزي .

أما المُتلمس الضُبعي (١٣) :

إنَّ الهوانَ حمارُ الأهلِ يعرفهُ والحرّ ينكره والرَّسلةُ الأجدُ(١٤)
ولا يقيمُ على خسفٍ يرادُ بــه إلا الأذلانِ عير الأهل والوتـدِ

يقول المتلمس : إنَّ النّفوس الحُرَّة الأبية والكريمة ترفض الخنوع والخضوع مثلما يخضع حمار البيت للربط والقيد ، فالإنسان الحرُّ الكريم ، لا

يقبل الذُلَّ ولا يرضى به ، ولا تغمض له عين ، مثلما تنام عيون الأذلاء ، حمير البيوت المربوطة بالحبال الى الأوتاد .

والمُقعد بن سُليم الطائي مرَّ على قومٍ استسلموا تماماً لما يريده منهم عدوهم ، فقال يعيرهم (١٥) :

أ خشيةَ الموت درَّ درُّكم أعطيتم القومَ فوقَ ما سألوا
إنا لعمر الإله نأبى الذي قالوا وإنْ قومنا بها اقتتـلوا
نقبلُ ضيماً ونحنُ نعرفه مادام منا ببطنها رجـــلُ
يأبى لنا عزَّنا ومنصبنـا ثمَّتَ تحنو من خلفنا ثعـلُ(١٦)

يقول المُقعد : لقد خفتم الموت فأطعتم عدوكم وخضعتم له ، وأنتم صاغرين أكثرُ مما طلب منكم من فدية ، أما نحنُ ، فالله يشهدُ إنا نأبى ذلك ونرفضه ، ونقاتل دونه ، ولا نقبل بالذل والهوان والعار ، ولا نستسلم للعدو مادام فينا رجلٌ حيٌّ ، إنَّ عزَّنا وحسبنا ومكانتنا بين القبائل العربية تأبى لنا أنْ نطأطأ رؤوسنا وننحني ، ووراءنا عشيرة ذات عزٍّ وشأنٍ ، وهي تُعل من طئ .

وآخر المفتخرين هو الشاعر عبيدُالله بن الحرّ الجُعفي (١٧) :

ما زلتُ أتقي الخسفَ عنّي وأحتمي وبعضهم إنْ سيم بالخسفِ ملبسِ

عبيدُالله بن الحرّ الجُعفي هو من الصعاليك السياسيين في العصر الأموي ، يقول ما دمتُ على قيد الحياة ، فإنّي أرفض الذلَّ والهوان ، محتمياً بسيفي ، وأما الآخرون فبمجرد أن يحوطهم الذلَّ استسلموا له ولبسوا لباسه ، دون أيِّ مقاومة .

هذا بعض ما رصدته في هذا الباب والحمد لله أولًا وآخرًا ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

الهوامش :

١- لسان العرب مادة : أبى
٢- لسان العرب مادة : عزَّ
٣- سورة التين الآية : ٤
٤- أراد آدم وذريته ، ينظر تفسير مجمع البيان : ١٠ / ٣١٣
٥- سورة البقرة الآية : ٣٠
٦- سورة القيامة الآية : ٣٦
٧- سورة الإنسان الآية : ٣
٨- اللهوف في قتلى الطفوف : ٦٢
٩- ديوان شعراء بني كلب بن وبرة : ١ / ٥٩

١٠- حماسة البحتري : ١٩
١١- حماسة البحتري : ٢١
١٢- أخل شرح أشعار الهُذليين بهذه النتفة والتخريج من حماسة البحتري:٢١
١٣- معاهد التنصيص : ٢ / ٣٠٦
١٤- الرسلة : الناقة السهلة السير ، الأجد : الموثقة الخلق
١٥- حماسة البحتري : ٢١
١٦- ثُعل عشيرة حاتم بن عبدالله الطائي
١٧- أشعار اللصوص وأخبارهم : ١ / ٢٧٠ ، هو عبيدُالله بن الحرّ الجُعفي من مذحج ، لم يكن لصّاً وإنَّما كان ثائراً فضلاً عن كونه كان رجلاً شهماً ينظر خزانة الأدب : ٢ / ١٥٦ ، ٩ / ٩٨

المصادر :

- القرآن الكريم
- الحماسة – لأبي عبادة البحتري ، ضبطها وعلق على حواشيها كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٩٢٩م .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ عبدالقادر البغدادي (ت١٠٩٣هـ) ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
- ديوان شعراء بني كلب بن وبرة ، أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية والإسلام – صنعة الدكتور محمد شفيق البيطار ، دار صادر ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، بيروت .
- لسان العرب – ابن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ) ؛ القاهرة ، د . ت .
- اللهوف في قتلى الطفوف – علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسيني ، منشورات السجدة ، مطبعة الهادي ، ط ١ ـ ١٤٢٤هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم ـ للطبرسي (توفي في القرن ٦هـ) ، وضع حواشيه وشرح آياته وشواهده إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م ، بيروت.

المقالة السادسة

كثرة السؤال تذهب الحياء

كثرة السؤال تذهب الحياء

سألَ يسألُ : استخبر يستخبرُ عن شيءٍ ليعرفه ، والسُّؤال نوعان : أولُهما ما كان على وجه التبيين والتعلم ، مما تمسُّ من حاجةٍ إليه ، فهو مباحٌ ، والثاني ما كان عن طريق التكلف والتعنّت ، فهو مكروهٌ ومنهيٌّ عنه ، فإذا كان السُّؤال من هذا الوجه ، ووقع السّكوت عن الجواب ، فإنَّما هو ردعٌ وزجرٌ للسائل ، وإنْ وقع الجواب ، فهو عقوبةٌ وتغليظٌ (١) ، وقد نهى النبيُّ محمد (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم) في قوله (٢) : (إنَّ اللهَ كرِهَ لكم ثلاثاً : قيلٌ وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السُّؤال) ، ومعنى ذلك أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يحبُ أهل القال والقيل ، أي المنافقين ، والمسرفين ممن يضيعون الأموال في غير مكانها ، وكثرة السُّؤال ، أي الاستجداء ، ومدُّ اليد الى الآخرين ، والطلبُ مما في أيديهم ، والاستجداء ، هو إراقة ماء الوجه ، وفاعل سأل هنا هو رجلٌ سؤُلة ، أي كثير السُّؤال ، وكذلك الفقير المُعوز يسمى سائلاً وجمعهُ سُؤّال (٣) ، والسائل هنا من مدَّ يدهُ الى الآخرين ، وهذا يعني ذهاب حياءه وسقوط ماء وجهه ، فضلاً عن سقوطه في الذِلّة والمهانة ، فعلى الإنسان السوي المؤمن أنْ يترفع فوق السُّؤال ويتعفف ، ولو كانت به خصاصة ، ولا يسال الناس مما في أيديهم ، ومن هنا جاء قوله تعالى عن الفقراء المتعففين من المسلمين (٤) : { للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، يحسبهم الجاهلُ أغنياء من التعفّفِ ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً } .

ورد كثيرٌ من هذا في الشعر العربي القديم من شواهد دالة على التعفف وعدم مدّ يد السُّؤال الى الآخرين للحصول على بعض ما في أيديهم ، خوفًا من ذهاب حياءهم ، وهي كرامتهم ومنزلتهم بين الناس ، فهذا الشاعر الأعشى ميمون يقول في معرض هجائه لعُمير بن عبدالله بن المنذر بن عبدان (٥) :

تُسَرُّ وتُعْطى كلَّ شيْءٍ سـألتّهُ ومنْ يُكثرِ التَّسْآلَ لا بدَّ يُحـرَمِ

فما لكَ عندي نائلٌ غيرُ ما مضى رضيتَ به فاصبر لذلك أوْ ذَمِ

يقول الأعشى لعُمير : تفرحُ وتستبشرُ عندما تحصلُ على كلِّ ما سألتَ ، ولكنْ عليك أن لا تنسى ، أنَّهُ سيأتي عليك يومٌ تردُّ فيه خائبًا خالي الوفاض

محرومًا، وقد أرقتَ ماءَ وجهك ، وأصبحت ذليلًا مهانًا ، فاليوم لا عطاء لك عندي إلا ما قد سلف ، فاصبر على ما بك أو ذلْ نفسك .

وقال عَمْرُو بنُ ضِنّة الثَّقفيُّ (٦) :

ومنْ يكُ ثَقْلًا يملِ النّاسُ ثُقْلِهُ وإنْ كان ذا ثقلٍ على النّاسِ واجبِ

يقول ابنُ ضِنَّةَ : الرجل الكثير السُّؤال يكون ثقيلاً على الناس ويملونهُ من كثرة سؤاله والحاحه عليهم ، ولو أنَّ لصاحب الحاجة من المعوزين حقٌّ عند الناس ، إلا إنّ الإلحاح والمبالغة في مد اليد والطلب يفسد طلبه ، ويجعله مذمومًا بين الناس .

أمّا شاعر الحكمة والسلام زُهير بن أبي سلمى فقال (٧) :

ومنْ لا يزَلْ يستحملُ النَّاسَ نفسَهُ ولا يُغنها يوماً من الدّهرِ يُسْأَمِ

يقول زُهير من يظلُ يستجدي الناس ، وينظر إليهم مادًا يده طلبًا للعون والمساعدة ، ومصرًا على انْ يُحملْ نفسهُ على ما تكره ، وهو الذُّل ، ولا يترفع بها فوق الدَّنية والمسألة ، سيأتيه الزمانُ بيومٍ يجعلهُ يكره الحياة كلها ، وعند ذاك لا ينفعه الندم على ما قدم لنفسه .

وقال سُليمُ بنُ خنجر الكلبي (٨) :

ويسأمُكَ الأدنى وإنْ كان مُكثرًا إذا لمْ تزلْ عبئاً عليه ثقيلًا

يقول سُليم بنُ خنجر : أنْ لم تصُنْ نفسك ، وتترفعُ بها فوق الصغائر والدّنايا ، سوف يمُلُّكَ أقرب أقربائك ، وإن كان ذا مالٍ وافرٍ ، لأنَّك أصبحت ثقيلًا عليه ، وشخص غير مرغوبٍ بك .

وقال سُليم أيضاً (٩) :

ومنْ لا يزلْ عِبئاً يُمَلُّ مكانُهُ وإنْ كانَ ذا رَحِمٍ قريبِ المناصِبِ

يقول سُليم : يجب على المرء أنْ ينتبهَ لنفسهِ ، وأنْ لا يكونَ حملًا ثقيلًا على قومهِ ، لأنَّ مكانته الاجتماعية سوف تهبط الى الأدنى ، ولو استمر بذُلِ نفسه

من خلال استمراره بالتسولِ ، وكثرة السُّؤال ، فإنَّ قومه سيتخلون عنه ، وإنْ كانتْ تربطُهُ معهم صلةَ رحمِ قريبةٍ .

وقال عدي بن الرقاع العاملي (١٠) :

حمَّلتُ نفسي على أمْرٍ وقلتُ لها إنَّ السَّؤُولَ على الأحوالِ ممْلُولِ

يقول عدي بن الرقاع العاملي : على الرغم من حاجتي الماسة ، لما أنا فيه من عوزٍ وضيقٍ وشدةٍ ، إلا كرامتي أبت لي السُّؤال ، وقلتُ لنفسي اصبري إنَّ من يكثرُ السُّؤال يُذَّلُ ويُهانُ ، ويصبحُ شخصًا غير مرغوبٍ فيه .

كان الشعر العربي قبل الإسلام يتبوأُ مكانةً عليةً عند العرب ، إذْ كانوا يحتفلون ويتبادلون التهاني ، عندما يبزغُ عندهم نجمُ شاعرٍ ، وبعد ظهور الشعراء المداحون وإراقتهم ماء وجوههم من خلال التسول بالشعر ، ومدح رؤساء القبائل والوجهاء بما ليس فيهم من الصفات والمواصفات ، هبط الشعر من برجه العاجي الى درجة أدنى .

الهوامش :

١- معجم لسان العرب مادة : سأل

٢- صحيح البخاري : الحديث : ٦٤٧٣ ، صحيح مسلم رقم الحديث : ٥٩٣

٣- معجم لسان العرب : مادة سأل

٤- سورة البقرة الآية : ٢٧٣

٥- ديوانه : ١٨٠

٦- حماسة البحتري : ١٨٨

٧- شعره : ٢٩

٨- ديوان شعراء كلب بن وبرة : ٢ / ٦٦٧

٩- ديوان شعراء كلب بن وبرة : ٢ / ٦٦٧

١٠- ديوان شعره : ٢٦١

المصادر :

- القرآن الكريم
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس – شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بيروت لبنان .
- شعر زُهير بن أبي سلمى – صنعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . بيروت لبنان .
- ديوان شعراء كلب بن وبرة – صنعة الدكتور محمد شفيق البيطار ، دار صادر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م ، بيروت .
- ديوان عدي بن الرِّقاع العاملي - رواية أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني (ت٢٩١هـ) ، تحقيق الدكتور نوري حمودي القيس ، والدكتور حاتم صالح الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، بغداد .
- معجم لسان العرب - لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، (د.ت) .

المقالة السابعة

الصبر على الشدائد والتجلد أمام الشامتين

الصَّبرُ على المصائبِ والتجلد أمام الشامتين

الصّبرُ وكما هو معروف في المجتمع وشائع هو القدرة على كتم الامور وتحملها وعدم إظهارها أمام الآخرين ، وهو حبس النفس (١) ، وقد ورد في الحديث الشريف قول رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لأعرابي من باهلة (٢) : (صُمْ شهرَ الصّبر ، ويوماً من كُلِّ شهر) ، قال الخطابي (٣) : شهر الصّبر هو شهر رمضان الكريم ، لأنَّ من معاني الصبر الحبس وهو أنْ تحبس نفسك عن الطعام والشراب والنكاح ، قال الأحمر (٤) : (أقادَ السلطانُ فُلاناً واقتصَّهُ وأصبرهُ) أي قتله بقودٍ ، وقتل القود ، هو قتل المحبوس ، وأعود الى المعنى الشائع عند الناس ، وهو الصبر ، فالصبَّرُ نقيض الجزع (٥) ، قال تعالى(٦) {واصبرْ نفسكَ معَ الذّين يدعُونَ ربَّهم بالغداة والعشي َيريدونَ وجهَهُ} ، فلا تظهر ضعفك أمام الناس ، وكن قويًا شديدًا .

أما التجلدُ ، وهو الآخر من معاني الصبر ولكن بقوة ، وهو قوةٌ مع صبرٍ، والشماتة تعني فرح الأعداء بما حلَّ بك من أحزانٍ وهمومٍ ومصائب ، ومنه قول النبي هارون لأخيه موسى (عليهما السلام) في قوله تعالى (٧) : { إنَّ القومَ استضعفوني ، وكادُوا يقتلونني فلا تُشمتْ بيَ الأعداءَ ، ولا تجعلني مع القومِ الظالمين } ، أي لا تجعلهم يفرحون بما حلَّ بي ، والصبرُ على الهموم والأحزان والمصائب كثيرٌ في الشعر العربي ، وسنقف على نماذج مختارة من الشعر ، لمعرفة مدى صبرهم وتجلدهم على حوادث الزمان وعدم إظهار الحزن والجزع أمام الناس فيشمتوا بهم ، ومن ذلك قول الشاعر أبو ذُؤَيْبٍ الهُذَلي (٨) :

حتى كأنّي للحوادثِ مرْوَةٌ بصفا المُشرَّقِ كُلِّ يَوْمٍ تُقْـرَعُ(٩)

وتجلّدي للشَّامتين أرِيهُـمِ أنَّي لريبِ الدَّهرِ لا أتضَعْضَعُ(١٠)

قصة موت أبناء أبي ذؤيب الهذلي معروفة في الأدب العربي ، فالشاعر يقول : أصبحت مركزاً للمصائب فقد حلَّتْ بي بقوة ، ونزلَ بي البلاء ، وكنت كمن يتلقى صفعةً بعد صفعة ، ومع ذلك كنت صامدًا مثل الجبل الشامخ الذي لا تهزهُ الرياح ، قويًا أمام الأعداء الفرحين بما حلَّ بي ، واظهرُ لهم صبرًا عزَّ مثيله ، وأقول لهم أنَّ حوادثَ الزَّمانِ لا تُكسرُني .

وقال الجَمَّالُ بن المُعلى العَبدي (١١) :

لا النائباتُ لهذا الدَّهرِ تقطعُنـــي والصَّبْرُ مني على ما نابَني خُلُقُ(١٢)

إنَّ الكريمَ صبورٌ كيفما انصرفَتْ بهِ الصُّروفُ إذا مَا أفلقَ الفَـرِقُ(١٣)

يقول العبدي : الحوادثُ الجسام مهما كانت ، لن تستطيعَ أنْ تُهلكني ، لأنّي مُتسلحٌ بالصّبر على ما أصابني به الدّهر ، وأنَّ الرجلَ الكريم إذا عظَّهُ ناب الدَّهر ، وغدر به الزمان ، وأظهر له من البلاء ما لا يتحمله إنسان ، فأنا على الرغم من قسوتها عليَ ، فأنا قويٌ صامدٌ ومتماسكٌ أمام المصائب والنوائب فلا تهزني ، ولا انحني أمامها ، فأكون ضعيفًا.

وقال الشاعر أنس بن مُدركة الخثعمي (١٤) :

كمْ منْ أخٍ لي كريمٍ قدْ فُجعتُ بـهِ ثُمَّ بقيتُ كأنّي بعدهُ حجـــــــــرُ

لا أستكينُ على ريْبِ الزَّمــانِ ولا أُغضي على الأمرِ يأتي دونَهُ العذرُ

مردي حُرُوبٍ أجيلُ الأمرَ مُقتدراً إذْ بعضُهُمْ لأمُورٍ تعتري جَـــــزَرُ

يقول الشاعر أنس : لي أخوةٌ وأحبابٌ كثيرون فجعني بهم الدّهرُ ، وعلى الرغم من معزتهم ومكانتهم في قلبي ، إلا أني توشحتُ بوشاح الصبرِ ، وظهرتُ للناس من بعدهم صلبًا متماسكًا كالحجارة ، ولم استسلم لنائبات الزمان لتذلني ، بل سكتُ وصبرتُ عليها حتى يأتيني من يواسني على فقدي ، فأنا شديدُ البأسِ والقوةِ مثل الصخرةِ الصلدةِ التي تتكسرُ عليها الصخور الأخرى ، ولن أكونَ جزورًا مثل بعضِ الناسِ حينما تعتريهم النوائب فتجزرُهم .

وقال الطّرمَّاحُ بنُ حكيمٍ الطّائيُّ (١٥) :

فإنْ أشمط ، فلم أشـــمط لئيمًا ولا مُتخشِّـــــــعًا للنَّائِباتِ

وضارستُ الأمورَ وضارستني فلم أجزعْ ولم تضعف قناتـي

يقول الطرمّاحُ : إنَّ شعرَ رأسي قد اشتعلَ شيبًا ، ليس من صروف الدهر ، ولا من نوائبه ، ولكنَّ ذلكَ لأنّ الحياة عركتني وعركتها ، لذلك لم أحزن على منْ فقدتُ ، ولم تضعف حياتي بفقدهم ، لأنّي رجلٌ جلدٌ صبور .

قال ابنُ عَدَّاءٍ النُخَعيُّ (١٦) :

إنّي لمنْ قَوْمٍ إذا نُكبُـــــــوا لم يجزعوا لنوائب الدَّهْرِ

صُبَرٍ على ما كان من حدثٍ والأكرمُونَ أحقُّ بالصّبـرِ

يقول الشاعر : أنا من عشيرةٍ إذا غدرَ بهم الزّمّانُ ، صبروا وتجلدوا لما حلَّ بهم من المصائب ، فهم رجالٌ صُبَرٌ على ما انتابهم من صروف الدّهْرِ ونوائبه ، ذلك لأنَّهم كرامٌ ، والكريمُ الأجدرُ به أنْ يكونْ أهلًا للصبر وتحمله ، وهم كذلك .

وقال الشاعر عبدالرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري (١٧) :

ألمْ تـرَ أنّـي لا أليـنُ لغامـــــزٍ ولا أبتدي ربَّ القطيعةِ بالوصلِ

وأنّي متى أُنْكَبْ من الدَّهْرِ نكبةً أكفكفُ غُربيها بصبرٍ فتىً جـزْلِ(١٨)

يقول الشاعر عبد الرحمن : ألا تراني لم أضعف أمام ضربات الزّمّان وطعناته ، ولا أكون أول من يصلْ من قطعني ، وأنا رجلٌ إذا شاءت الأقدار أن تصيبني بسهامها ، امسح بكمي دموعي مرةً بعد مرةٍ ، ودموعها تجري بلا انقطاع ، ومع ذلك أنا صبورٌ على ما نابني به الدهر من صروفه .

وقال عديُّ بن الرِّقاع العامليُّ (١٩) :

ونكبةٍ لوْ رمى الرّامي بها حجراً أصمَّ من جندلِ الصّوَّانِ لانصدعـا

أتتْ عليَّ فلم أنزعْ لها ســــــلبي ولا استكنتُ لها شكوى ولا جزعا

يقول العامليُّ : لقد أصابني الدَّهْرُ بسهامه بمصيبة كبيرة جدًا ، فمن هولها لو رماها الرامي على حجر أصم لتهشم من شدتها ، فقد داهمتني لتسلبني ولكنّني صبرت لها ، لم استسلم ، ولم اشكو ما حلَّ ضعفًا وانكسارًا .

وهناك أشعاراً كثيرة تجري مجرى هذا البحث ، إلا أنَّ المقالة لا تستوعبُ أكثر مما استشهدتُ به ومن الله التوفيق .

الهوامش :

١- معجم لسان العرب مادة : صبر

٢- سنن أبي داود : الحديث : ٢٤٢٨

٣- معجم لسان العرب مادة : صبر

٤- معجم لسان العرب مادة : صبر

٥- معجم لسان العرب مادة : صبر

٦- سورة الكهف الآية : ٢٨

٧- سورة الأعراف الآية : ١٥٠

٨- شرح أشعار الهذليين : ١ / ١٥

٩- المروة الحجارة الصلبة ، قرعَ الدّهرُ مروته : أنزل به البلاء ،المشرّق : قال سماك بن حرب : هو مسجد العيدين ، وقال أبو عبيدة : هو سوقٌ بالطائف ، فيما قال الأصمعي : هو جبل البِرام .

١٠- أتضعضعُ : أتكسرُ

١١- شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي : ٣٩٣

١٢- تقطعني : تهلكني

١٣- أفلقَ : أظهر ، الفرق : الشديد الفزع

١٤- حماسة البحتري : ١٩٢

١٥- ديوانه : ٢٠ ـ ٢١

١٦- حماسة البحتري : ١٩٥

١٧- شعره : ٤٧

١٨- الغُرُب : مصدر نزول الدمع من اليمين والشمال

١٩- ديوانه : ٢١٧

٢٠- الصوان : جبل ببلاد الشام

المصادر :

- القرآن الكريم
- الحماسة – لأبي عبادة البحتري ، ضبطها وعلق على حواشيها كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٩٢٩م .
- ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي : رواية أبي العباس ثعلب ، تحقيق الدكتور نوري حمودي القيس ، والدكتور حاتم صالح الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ديوان الطرماح – عنى بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، دمشق ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
- سنن ابي داود – لأبي داود سليمان بن الأشعث بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر المكتبة العصرية / صيدا – بيروت .
- شرح أشعار الهذليين – صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكري (ت٢٧٥هـ) ، رواية أبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي عن أبي بكر بن محمد الحلواني عن السُّكري ، ضبطه وصححه خالد عبدالغني محفوظ ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ .

- شعر عبدالرحمن بن حسّان الأنصاري ، جمع وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧١م .
- معجم لسان العرب – لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، (د . ت) .

المقالة الثامنة

الصداقـــة والصـــديق

الصّديق والصداقة

الصّديقُ اسمٌ مشتقٌ من الفعل صدقَ - الصّدقُ نقيضٌ للكذبِ - وهو مشتقٌ من الفعل صدقَ ، يصدُقُ ، صَدقاً ، صِدقاً ، وتصدّاقاً ، وصدَّقَهُ في الحديث ، أي أنبأَهُ بالصدق (١) ، قال الأعشى (٢) :

فصدّقتُها وكذبتُها والمرءُ ينفعُهُ كذبُهْ

ومن الأقوال الشائعة عند العرب في الصّدقِ قولُهم : (الصِّدقُ ينبئُ عنك لا الوعيد) ، أي أنَّ الرجالَ تُعرفُ بأفعالِها وليس بأقوالِها ، لذا يجب أنْ تتطابقُ الأقوالِ مع الأفعال الصّادقة ، ومنه قوله تعالى (٣) : { ليُسألُ الصادقين عن صدقهم } ، وتأويلهُ : ليُسأل المُبلغين من الرُّسلِ عن صدقهم في تبليغ ما حُمِلوا به من عند الله سبحانه وتعالى الى البشر .

والصديقُ هو الشخصُ المُقربُ إليك ، والمُصاحبُ لك في العمل والمجتمع ، وبينك وبينه علاقة حسنة ، تسودها المحبة والمودّة ، فقد اكتسب الصّديقُ لقبَ الصديق من خلال حُسنِ تعامله معك ، واحترامه لك ، وحفظك في غيابك وحضورك ، والصّديق قد يكون في مرتبة الأخ ، فهذا الحكيمُ لقمان يقول(٤) : رُبَّ أخٍ لكَ لمْ تلدْهُ أُمكَ .

فقد جعلَ لقمانُ الحكيم الصّديق بمرتبة الأخ الشقيق الذي هو أقربُ الاخوان إليك من اخوانكَ الآخرين من طرف أبيك .

ولابُدَّ من الاشارة الى أنَّ لفظة صاحب هي اللفظة المرادفة للفظة صديق، فصحبه يصحبه إذا رافقه ، والصّديقُ المُصاحب يكون أكثرُ ملازمةً لصديقه من الصّديق غير المُصاحب ، والذي يُميزُ الصّديق عن الصاحب ، هو أنَّ الصّديقَ مفترضٌ به أنْ لا يكذب ، وجَمْعُ صاحب صِحابة مقابل جمع أصدقاء ، وقد يكون الصاحبُ صديقاً في آنٍ واحدٍ ، وهو المثال الحَسن ، فنقول : فلانُ صاحبُ صِدقٍ(٥) .

روى أبو هلال العسكري في كتابهِ ديوان المعاني (٦) أنَّ أبا أحمد حدثهُ قائلاً : أنشدني أبو اسحق الشطبي ، فقال أنشدنا حمّادُ الراوية في مدح الإخوان :

تصفحتُ اخواني بعينِ عنايـــــةٍ فأصلحتُ منها كلَّ ما أفسدَ الدّهـرُ

وأرضاكَ عفوِ الشّكرِ دون اجتهادِهِ وفي دون ما أوليتُ ما اجتهدَ الشّكرُ

أراد الشاعر في هذه النُتفة الشعرية بكلمة اخواني أصدقائي ، فقد عدّهم بمرتبة الاخوان كما ترى .

ومن مستحباتِ الصّداقةِ الحقّةِ ، هي أنْ لا نقسوا في عتابِنا لأصدقائنا على بعض الهفوات والهنات التي تصدر من بعضهم ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الانسان مجبولاً على النقص ، إذْ ليسَ هناك شخصٌ معصومٌ من الزللِ والخطأ ، وعلينا أنْ نتبادل الصفحَ والعفوَ ، ونتسامح فيما بيننا ، لتقوية أواصر المحبة والمودة ، لتوطيد عُرى الصداقة ، وقد جسد هذا المبدأ الشاعر بشار بن برد في قوله (٧) :

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتبـــاً صديقكَ ؛ لم تلقَ الذي لا تُعاتبُهْ

فعشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّـــهُ مفارقُ ذنبٍ مرةً ومجانبُـــــهْ

إذا أنتَ لمْ تشربْ مراراً على القذى وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُـــــهْ

نلحظ في هذه القطعة الشعرية أنَّ الشاعر بشار بن برد قال في البيت الأول : ((صديقك)) ، ثُمَّ عدل عنها في البيت الثاني فقال : ((أخاك)) ، وذلك تعبيرًا عن امتزاج المعنى وتداخله بين اللفظتين ، وقد أجاد الشاعر في ذلك ، وكان موفقاً في تعبيره عن الصداقة ، فرسم لنا تُحفةً فنية رائعة .

الهوامش :

١- معجم لسان العرب مادة : صدق

٢- أخلت بهِ رواية الديوان والتخريج من معجم لسان العرب مادة : صدق

٣- سورة الأحزاب الآية : ٣٣

٤- نت

٥- معجم لسان العرب مادة : صحب

٦- ديوان المعاني : ٢/ ١٩٨

٧- ديوان بشار بن برد : ١ / ٣٢٦ ؛ وقد وردت في الديوان كلمة الذنوب بدلاً من الأمور .

المصادر

- القرآن الكريم
- ديوان بشار بن برد – تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ؛ تونس ؛ (د.ت) .
- ديوان المعاني – للإمام اللغوي والأديب أبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ، عالم الكتب ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ، مصر .
- معجم لسان العرب – لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، د.ت .
- نت – الشبكة العنكبوتية

المقالة التاسعة

قراءة جديدة في مخاطبة العرب للواحد بلفظ الاثنين

قراءة جديدة في مخاطبة العرب للواحد بلفظ الاثنين

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسقطِ اللوى بينَ الدخولِ فحوملِ

هذا البيتُ الشعري هوَ مطلعٌ لمعلقةِ الشاعر الجاهلي امرئ القيس (١) ، وفيهِ يخاطبُ رفيقَ سفرهِ ، ويدعوهُ للمشاركة في البكاءِ على طللِ صاحبتِهِ ، والعربُ تقولُ : إنّ أقلَ الصُحبةِ في السفرِ واحدٌ ؛ وبذلكَ نلحظُ أنَّ الشعراءَ يخاطبون رفيقَ سفرِهم بلفظِ الاثنين ، ولا نعرفُ لذلكَ علةً منطقيةً معقولةٌ ومقبولةً ، فاجتهدَ رواةُ الشعرِ ونقادهِ واللغويون والنحاةُ لإيجادِ سببٍ مُقنعٍ لهذا الخطابِ ، فاجتهدوا في ذلك وبحثوا عن سببٍ يبررُ هذا الخطاب ، فاختلفوا فيما بينهم ولم يتفقوا على شيءٍ ، فقالوا على وجه الظنّ والتخمين : إنَّ خطابَ الاثنين للمفرد ، المقصودُ منهُ رفيقَ السفرِ والناقةِ ، أو هو استبدالُ لفظٍ مكانَ لفظٍ ، (أو ما يُسمى بلغةِ الأدبِ الحديث الانزياح) ، وكذلك فقالوا : إنَّ أقلَّ أعوانَ الرجلِ في ابلهِ ومالهِ اثنان ، فجرى كلامُ الرجل على ما أَلِفَ من خطابه لصاحبيهِ ، لكنَّ البغدادي قال : وفيه نظر ، وفيه نظر يدل على أنَّ البغداديَ غير مقتنعٍ بهذا التعليل ، أما رأيُ الخليل بن أحمد الفراهيدي والاخفش فهو أنَّ هذا من كلام العرب الفصيح (٢) ، من غير أنْ يذكرا علةً لذلك ، ولكنَّني ومنذُ أنْ وقفتُ على هذه التعليلات ، لم أتفق معها ولم اقتنعْ بها مطلقاً ، وبعد بحثٍ وجهدٍ كبيرينِ وجدتُ أنَّ ملوكَ العربِ ورؤسائِهم وعظمائِهم عندما يتحدثون عن أنفسهم ، يتحدثون عنها بصيغةِ الجمع وليسَ بصيغةِ المفرد ، وهذا العُرف ما زال سائداً الى اليوم ، فمثلاً عندما يريدُ الملكُ أنْ يصدرَ إرادةً ملكية فإنَّهُ يقول : نحنُ جلالة الملك قررنا ... ، وهو يعرفُ جيداً أنَّهُ واحدٌ ؛ فعللوا هذا الخطاب بأنَّهُ لتعظيم الملك أو الرئيس ومن هو بمرتبتهم ؛ وقد أكدَ هذا الأسلوب من الخطاب القرآنُ الكريم ، فاللهُ سبحانه وتعالى عندما يخاطبُ أنبياءه ورسله وعباده ، يخاطبهم بصيغة الجمع في مثل قوله تعالى (٣) : { إنَّا أنزلناهُ قرآنًا عربيًا لَّعلَّكُمْ تعقِلون } ، فالله سبحانه هو واحدٌ فردٌ صمدٌ ؛ ومع ذلك قال عن نفسه (إنَّا) بصيغة الجمع ، وذلك تعظيمٌ لذاتهِ المقدسة أمام أنبيائه ورسله وعباده ، ومن بعد ذلك وجدتُ أنَّ الله سبحانه وتعالى يخاطبُ مالكًا خازن النار بلفظ الاثنين في قوله تعالى (٤) :

{ألقِيا في جهنَّمَ كُلَّ كفَّارٍ عنيدٍ } ، وعادَ ليؤكد ذلك مرةً أخرى في قولهِ (٥) : {فألقياهُ في العذابِ الشديدِ } ، فاستوقفني ذلك وشدَّ انتباهي إليه لأتأملهُ بدقةٍ ، وأنَّا اعرفُ جيدًا أنَّ الله سبحانه وتعالى يعرفُ أنَّ مالكًا هو ملكٌ واحدٌ وليسَ اثنين ، فكيف خاطبهُ إذًا بلفظ الاثنين ، وحاولتُ ربط هذا الخطاب مع خطاب الشعراء لرفاقِ سفرِهم بخطاب الاثنين ، فاجتهدت في ذلك ، وتوصلتُ الى إنَّ خطابَ الواحد بخطاب الاثنين يختلفُ عن خطاب الواحد بخطاب الجمع ، فخطاب الجمع يدلُ على التعظيم وخطاب التثنية هو للمتناظرين في المرتبة وكذلك هو للأقلِ مرتبةً ، فالأعلى حينما يخاطب الأدنى بهذا الخطاب فهو من باب التقدير والاحترام ، فالله سبحانه وتعالى كرمَ مالكًا خازن النار بخطاب الاثنين ليرفع من شأنهِ أمام جموعِ الكُفار والمشركين والمنافقين ، وهذا ينسحبُ على الشعراء في خطابهم لرفاقِ سفرِهم بخطاب الاثنين تكريمًا لهم وتقديرًا ، وليس خطابًا لرفيق السفر والناقة ، ومن هذا النوعُ من الخطاب قولُ الشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة العامري مخاطبًا عمهُ أبا بُراء مالك بن عامر مُلاعب الأسنة بعد أنْ شاخَ وهرِم ، وخالفتْ بنو عامر رأيهُ ولم تلتزم ، واتهمتهُ بعزوب العقل فقال (٦) :

قُوما تجُوبانِ معَ الأنواحِ في مأتمٍ مُهجّرِ الرَّواحِ

لاحظ كيف خاطبَ لبيدُ بن ربيعة العامري عمه مُلاعب الاسنة بكلِّ أدبٍ واحترامٍ وتقديرٍ ، فخاطبهُ بلفظ الاثنين تقديرًا وتكريمًا له ، ومثله قالت العرب (٧) : (يا حرسيُ اضربا عنقه) ، وهو أمرٌ يصدرُ الى السياف ليضرب عنق المتهم ، وهكذا كانت كلّ مخاطبات الجاهليين تسيرُ على هذا النمطِ من الخطاب عند التكريم والتقدير والاحترام .

وخلاصة رأيي في هذه المسالة هو ((إنَّ خطاب الواحد بلفظ الأثنين هو من باب التكريم والتقدير والاحترام)) ، هذا ما اجتهدتُ فيهِ وتوصلتُ اليهِ ، فإنْ أصبتُ في مسعاي فبفضلٍ من الله وتوفيقهِ ، وإنْ جانبتُ الصواب فذلك من تلقاءِ نفسي الخاطئة ، وأخيراً أقول : الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين محمّد واله الطيبين الطاهرين الكرام .

الهوامش

١- ديوان امرئ القيس : ٨

٢- الجامع لأحكام القرآن : ١٢

٣- سورة يوسف الآية : ٢

٤- سورة ق الآية : ٢٤

٥- سورة ق الآية : ٢٥

٦- ديوان لبيد بن ربيعة العامري : ٤١

٧- المغني اللبيب : ٢ / ٣٧٢

المصادر

- القرآن الكريم .
- الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي ، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠٦م ، بيروت .
- ديوان امرئ القيس –تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر .
- ديوان لبيد بن ربيعة – دار صادر ، بيروت ؛ (د. ت) .
- المغني اللبيب عن كتب الأعاريب – لابن هشام الأنصاري (٧٦١هـ) ، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه حسن حمد وأشرف عليه وراجعه د.أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م ، بيروت – لبنان .

المقالة العاشرة

مكره أخوك لا بطـــــل

مكرهٌ أخوك لا بطل

أصل المثل هو ((مكرهٌ أخالك لا بطل)) ، وهو كما خطأ نحوي ، فتصويب المثل من عندي ، وهذا مثلٌ يضربُ لمن يجبرْ مُكرهًا على القيامِ بعملٍ ما ، وهو كارهٌ لهُ ، وهو مثلٌ جاهليٌ قديم ، قاله الشاعر بُهيس الفزاري وكان به حَمقٌ ، وبُهيس هو ابن هلال بن جمحة بن غُراب بن ظالم بن فَزارة ، ويلقب بالنعامة لطوله (١) ، وبُهيس كانت له ستة أخوة ، وهو سابعهم وأصغرهم سنًا (٢) ، فغزتهم قبيلة أشجع ذات مرة فاستاقت إبلهم وقتلت اخوته ، وتركوه لحمقه ، فرجع الى أمه ليخبرها الخبر ، فقالت له : أ نجوتَ من دونهم ؟ فقال : لو خيروكِ لاخترتِ ، فأرسلها مثلًا ، ثُمَّ أنَّ أمه عطفتْ عليه ورقتْ ، لما رأت أنَّه ليس لها غيره فأحبته ، وكانت قبل ذلك تبغضه ، فقال : الثُكلُ أرْأمها (٣) ، ثُمَّ جعلت تعطيه ثيابَ اخوته ومتاعهم يلبسها ، فقال : يا حبذا التراث لولا الذِّلة ، فأرسلها مثلًا ، ثُمَّ أتى على مقتل اخوته ما شاء الله ، فمر ذاتَ يومٍ على نسوة من قومه يُصلحنَّ امرأةً منهن ، يردن أن يهدينها لبعض القوم ممن قتلوا اخوته ، فكشفَ ثوبه عن أسته ، وغطى رأسه ، فقُلنَّ : ويحك أي شيءٍ تصنع ؟ فقال (٤) :

أ ليسَ لكُلِّ حالةٍ لبوسها إما نعيمُها وإما بوسها

فأرسلها مثلًا ، ثُمَّ مرت مدة أخرى على مقتل اخوته ما شاء الله ، وهو يتتبع القتلة ، فيقتلهم ويتقصاهم ، حتى قتل ناسًا فقال مفتخرًا (٥) :

يا لها من مهجةٍ يا لـــــــها أنَّى لها الطعمُ والسلامهْ

قد قتل القومُ إخوانـــــــها في كُلِّ وادٍ زقاءُ هامــهْ

لأطرقنَّهم وهم نيـــــــامٌ فأبركنَّ بركة النعامـــهْ

قابض رجلٍ وباسط أخرى والسيفُ أقدمه أمامـــهْ

وبموجب البيت الثالث من هذه القطعة سُميَ بالنعامة ، ثُمَّ جاءته الأخبار أنَّ نفرًا من بني أشجع في غارٍ يشربون ، فأتى خاله أبا الجشر (٦) فقال له : في الغار ظباءٌ لعلنا نصيب منهن ؟ فانطلقا الى الغار (٧) ، وقيل تناهت الى مسامعه

أنَّ سبعة من بني أشجع قد حظروا حظيرة من قصب وناموا فيها ، فقال بهيس لخاله جشر : هل لك في أخذ أعنزٍ سبعٍ رأيتهن رُبَّضاً ؟ ثم جردا سيفهما وذهبوا الى الحظيرة ، وكان أبو الجشر قصيرًا ، فحمله بهيس فألقاه على القومِ ، فجعل يضربهم بسيفه وبهيس معه حتى قتلوهم جميعًا ، فقال له لما رجعا : إنَّك يا أبا الجشر لشجاع ! فقال بهيس : مكرهٌ أخاك لا بطل (٨) ، وذهبت مثلاً على من تجبره الظروف على أن يعَمَلِ عَمَلًا وهو كارهٌ له .

ولما سُئِلَ بُهيس عن سبب هذه البطولة والشجاعة الخارقة ، قال : مُكرهٌ أخاك لا بطل ، وقد أجبرته الظروف بعد مقتل اخوته على ركوب الشر وقتل من قتل أخوته ورهطهم ، وكثيرون غير بُهيس أجبروا على ركوب الشر وهم كارهون له ، فأشار ابو اللحام التغلبي الى صولة بُهيس تلك فقال (٩) :

لُقمانُ منتصرًا ، وقُسٌ ناطقًا ولأنتَ أجرأُ صولةً من بُهيس

أراد صولة بُهيس على من قتل اخوته فأدرك ثأره وشفى نفسه ،وقريبٌ من هذا حمل النفس على الموت وهي كارهةٌ له ، فهذا عمرو بن معدي كرب الزبيدي بعد أن رأى فرار قومه من ساحة الوغى ، فثبتَ وحدهُ متصديًا للأعداء ، حتى هزمهم فقال (١٠) :

وقفتُ ، كأنَّي للرماحِ دريئــةً أقاتلُ عن أحسابِ جرمٍ ومـرَّتِ

وجاشتْ إليَّ النَّفسُ أول مرَّةٍ فَرُدَّتْ على مكروهها فاسـتقرتِ

فيما قال شُريح بن قرواش العبسي لما رأى قبيلة عبسٍ فرتْ من ساحة القتال ، فأبتْ له نفسه أنْ يفرَّ َ أو يموت دون ذلك فقال (١١) :

أقولُ لنفسٍ لا يُجادُ بـــــــها أقلي العتابَ إنّني غيرُ مدبـــــرِ

وهل غمراتِ الموتِ إلا نِزالكِ السكعّي على لحم الكميّ المُقطرِ

وفي معركة مؤتة التي خاضها المسلمون ضدَّ الروم قال الصحابي الجليل عبدالله ابن رواحة ، بعد استشهاد جعفر الطيار رحمه الله ، فرأى المسلمين يفرون

أمام الروم ، فأخذ الراية وتقدم بها ، وثبت في أرض المعركة كالطود الشامخ ، وهو يرتجز (١٢) :

قسمت يا نفس لتنزانـــــــه لتنزلن او لتكرهنـــــه

إنْ أجلبَ الناسُ وشدّوا الرَّنةْ ما لي أرا تكرهينَ الجنَّةْ

قد طالَ ما قد كنتِ مطمئنـــةْ هلْ أنتِ إلا نفة في شـنَّةْ

ثُمَّ قال رحمه الله (١٣) :

يا نفسُ إنْ لم تقتلي تموتي هذا حمامُ الموتِ قد صليتِ

وما تمنيتِ فقد أُعطيـــتِ إنْ تفعلي فعلهما (١٤)هُديـتِ

ثُمَّ تقدم بالراية وقاتل قتال الأبطال حتى استشهد رحمه الله وأسكنه الجنة .

الهوامش :

١- المؤتلف والمختلف : ٨٥

٢- قال أبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال : تسعة أخوة هو عاشرهم : ٢ / ٢١٢

٣- الرِّئمان : عطف الناقة على ولدها

٤- لسان العرب مادة : لبس

٥- الأغـــاني : ٢٣ / ٥٣٤

٦- اختلفت فيه المصادر فمرة حشر وأخرى جشر وثالثة حنش

٧- امثال العرب : ٧٣

٨- المؤتلف والمختلف : ٨٦

٩- أمثال العرب : ٧٤

١٠- حماسة البحتري : ١

١١- حماسة البحتري : ١ - ٢

١٢- ديوانه :٥٢

١٣- ديوانه : ٥٣

١٤- أراد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما

المصادر :

- الأغاني – لأبي الفرج الأصفهاني ، مصورة دار الكتب المصرية ، د.ت .
- أمثال العرب – المفضل الضبّي (ت١٦٨هـ) ، تحقيق وشرح وفهرسة الدكتور قصي الحسين ، دار ومكتبة الهلال ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٣م .
- الحماسة - لأبي عُبادة البحتري ، ضبطه وعلق حواشيه كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر ، ١٩٢٩م .
- ديوان الأمير عبدالله بن رواحة – تحقيق الشيخ محمد علي القطب ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، صيدا بيروت ، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م .
- كتاب جمهرة الأمثال – للشيخ الأديب أبي هلال العسكري ، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش ، دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- لسان العرب – لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، (د . ت) .
- المؤتلف والمختلف – لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه الدكتور صلاح الدين الهوَّاي ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .

المقالة الحادية عشرة

حمّاد الراوية في مجلس المهدي العباسي

حمّاد الراوية في مجلس المهدي العباسي

كُلُّنا يعرفُ أنَّ التراثَ العربي الجاهليُ منهُ والإسلاميُ وصلنا بروايةٍ شفويةٍ عن طريق رواة الأدب ، ورواة الأدب لم يكونوا على أمانة علمية واحدة ، فبعضهم الصادقُ ومنهم الكاذبون والنحّالون ويمتهنون الافتراء في صنع الأخبار ، وفي هذا المقال سنقفُ على خبرٍ مهمٍ يتعلقُ برواية التراث الأدبي ، لنتعرف على بعضِ أخطاءِ الرواة وكذبهم وافترائهم ، فقد روى لنا أبو الفرج الأصفهاني في أغانيهِ ما نصهُ (١) : (ذكر الرواةُ أنَّهم كانوا في دارِ أمير المؤمنين المهدي بعيسباد ، وقد جمع إليه الرواة العلماء بأيام العرب ، وأشعارها ، وأدبها ، ولغاتها ، وبينهم المفضل الضبّي وحمّاد الراوية ، ثم خرجا من عند المهدي ، وقد بانَ الانكسارُ والغمُّ في وجهِ حمّاد الراوية ، وفي وجهِ المفضل الضبّي السرور والنشاط ، ثم خرجَ حاجبُ الخليفة المُسمى حُسين الخادم فنادى قائلًا : يا معشر من حضر من أهلِ العلم ، أنَّ أمير المؤمنين يعلمكم ، أنَّــهُ وصل حمّاد الشاعر بعشرين الفِ درهمٍ لجودةِ شعرهِ ، وأبطلَ روايته لزيادته في أشعارِ الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفًا لصدقه وصحة روايته ، ولما سألناه عن السبب ، قيلَ : إنَّ المهدي ، قال للمفضل : إنّي رأيتُ زُهير بن أبي سُلمى افتتحَ قصيدتَهُ بقولهِ :

دعْ ذا وعد القولَ في هرمٍ خيرِ الكهولِ وسـيد الحضرِ

فقال المفضلُ : ما سمعتُ أمير المؤمنين في هذا شيئًا ، إلا أنّي أتوهمَهُ ، كان يفكرُ في قولٍ يقولهُ ، فعدلَ عنه إلى مدحِ هرمٍ ، وسألَ حمّادَ السؤال نفسه ، فقال حمّادُ : ليس هكذا قال زُهير ، قال : وكيف ؟ فقال حمّـادُ : قال :

لمنْ الديارُ بقنا الحجـــــرِ أقوينَ مذْ حججٍ ومـنْ شـــــهرِ

لعبَ الرياحُ بها وغيرهـــا بعدي ســوافي المورِ والقطـــرِ

قفراً بمندفع النحائتِ مـــنْ ضَغْوَى أولاتِ الضالِ والسـدرِ

دعْ ذا وعد القولَ في هـرمٍ خير الكهولِ وســيد الحضـــرِ

فأطرق المهدي ساعة ، ثم استحلف حمّاد أغلظ الإيمان ، فأقرَ حمّـادُ أنَّهُ وضعها على زُهير) .

تحليل النصُّ والحكمُ عليه

النصُ موضوعٌ ولاشكَ في ذلك ؛ وكاذبٌ ومُفترى للأسباب الآتية :

١- إنَّ حمّادَ الرّاوية حينما يفدُ على الخلفاءِ والأمراءِ والولاةِ ، كان يفدُ إليهم بصفتهِ راويةً للشعر ، وليس شاعرًا ، لأنَّ شعرهُ لا يرقى إلى مستوى الشعراء الفحول ، والروايةُ تقولُ : إنَّهُ شاعرٌ جيدُ الشعر ، ثم أنَّ الحكم الذي أصدره المهدي على حمّادِ الرّاوية ، كان يخصُ الرواية ، فكيف تحول الأمر من الشعر إلى الرواية ، ولم توضح الرواية هل وفد حمّاد الى المهدي بصفتهِ شاعرًا أمْ راويةً ، وهذا التناقض في الخبر ينقضُ الرواية ويبطلها .

٢- لماذا كان العلماءُ ، والرواةُ في باب مجلس المهدي ، ولم يكونوا في داخل المجلس ، علماً أنَّ الرواية في مطلعها قالت : إنَّهم كانوا في دارِ أمير المؤمنين ، هل أخرجوا من المجلس ؟ ولماذا لم يكونوا داخل المجلس ليسمعوا بشكل مباشر من الخليفة نفسه ، وليس من الخادم ؟ ليكونوا شـهودَ عيانٍ واثباتٍ على الواقعة ، ولكنَّ ذلك لم يحصلْ ، وهذه النقطة تدحض الرواية وتفسد خبرها .

٣- الرواية لم تذكر لنا من هُم الرواة الذين ذكروا الخبر ؟ أليست لهم أسماء ؟ فمن هُم ؟

٤- من هُم العلماء الرواة ، بأيامِ العرب ، وأشعارها ، وأدبها ، ولغاتها ، الذين حضروا في قصر المهدي ، لماذا أغفلتْ أسماؤُهم ولم تذكر ؟

٥- المصادرُ كافة ، تؤكدُ أنَّ حمّادَ الراوية تُوفيَ قبل أنْ يتولى المهدي الخلافة .

٦ - الخليفة المهدي بنى قصره في عيسباد سنة ١٦٤هـ في حين أنَّ حمّادَ الرواية قد توفي على أضعف الروايات سنة ١٥٨هـ (٢) .

٧- حمّادُ الراوية لم يتصلْ بخلفاء بني العباس وأمرائِهم ، لأنَّهُ كان يخشى على نفسه ، وذلك لأنَّهُ كان أمويُ الهوى ، وقد علق حمّادُ الراوية على ذلك قائلاً : (إنَّ أيامَ دولتنا قد مضتْ) وذلك حينما دُعي الى حضور مجلس جعفر بن المنصور.

٨ - القصيدة العربية الناضجة ، المستوفية لتقاليدها وشروطها ، تبدأ بمقدمة ، وفقاً لما روى حمّاد الراوية ، وليس بجسر لفظي ، وأداة حسن تخلص ؛ كما روى المفضل الضبّي ، لأنَّ أداة حسن التخلص والجسر اللفظي يمثلان رابطاً بين طرفي القصيدة ؛ المقدمة والغرض ، وقد بدأ الجسر اللفظي عند زُهير بأداةِ حسن التخلص التقليدية ، (دع ذا) وهذه الأدوات لا يجوز الابتداء بها ، لأنَّها تعدُ من العيوب والمآخذ التي يُسجلها النقادُ والرواةُ على الشعراءِ ، والمفضل الضبّي أعلمُ بذلك من غيرهِ ، لأنَّهُ من كبارِ رواة الشعر العربي الثقات ونقدهِ في العصر العباسي (٣) .

٩- القصيدةُ موجودةٌ في ديوان زُهير بن أبي سُلمى ، كما رواها حمّادُ الراوية ، وقد وثقها الراوية الأعلم الشنتمري وشرحها (٤) .

١٠- القصيدةُ موثقةٌ في مختارات أشعار العرب لابن الشجري ، كما رواها حمّادُ الراوية ، وقد شرحها أبو عمرو الشيباني ، وكذلك رواها أبو عبيدة (٥) .

١١- القصيدةُ موثقةٌ في مختار الشعر الجاهلي ، للأعلم الشنتمري ، كما رواها حمّادُ الراوية (٦) .

١٢- البيت الثاني رواهُ المرزوقي معزوًا لزُهير بن أبي سُلمى (٧) ، وهذا يعني أنّ المرزوقي يوثقُ صحة رواية حمّاد الراوية .

١٣- روى السيوطي في شرح شواهد المغني أنَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد بدلًا من المهدي (٨) .

١٤- علقَ الأستاذ أحمد محمد شاكر المحقق الثبت من خلال تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء ، قائلاً (٩) : (هي قصةٌ ظاهرةُ الصنعة) والأستاذ

أحمد محمد شاكر من كبارِ أعلام النقد في الشعر العربي القديم ، وقولهُ حجةٌ يعتدُ بها .

١٥- علق شيخُ المؤرخين المؤرخ الكبير الدكتور جواد علي الخبر فقال (١٠) : (القصة من وضع أعداء حمّاد عليه ، أو من وضع المتعصبين للمفضل)؛ وأضاف معلقاً على رواية السيوطي قائلاً (١١) : (القصة مصنوعة لأنَّ حمّاد مات سنة ١٥٦هـ وولاية الرشيد للخلافة كانت في سنة ١٧٠هـ) .

وخلاصةُ رأيي أقولُ بثقةٍ واطمئنانٍ : إنَّ الخبرَ كاذبٌ ومُفترى على رجلٍ لا علم به ، ولا أساس لهُ من الصحة ، كان الهدفُ من صناعتهِ ، هو الإساءة لحمّاد الراوية على حساب المفضل الضبّي ، على الرغم من إنَّ المفضل ، لم يكن محتاجًا إلى مثل هذه الرواية الساذجة والمتكلفة ؛ لأنَّ المفضل يعدُ من أعلام الأدب العربي ونقده الثقات ، ومن هنا تظهرُ براءةُ حمّاد الراوية من هذه التهمة المنسوبة اليه زورًا وبهتانًا ، هذا ما توصلتُ إليه واقتنعتُ به ، فإنْ اصبتُ في رأيي فالحمدُ للهِ والشكرُ ، وإنْ جانبتُ الصواب فهذا من تلقاءِ نفسي ، وأخيرًا الحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد وآله الطيبين الطاهرين الكرام.

الهوامش :

١- ينظر الأغـاني : ٨٥/٦ ، وينظر خزانة الآدب : ٩ / ٤٤٤- ٤٤٦

٢- ينظر تاريخ الطبري : أحداث سنة ١٦٤هـ

٣- ينظر الأغـاني : ٦/ ٨٢

٤- ينظر شرح ديوان زُهير : ٣٤ ــ٣٥

٥- مختارات أشعار العرب : ٢١٠-٢١١

٦- الأزمنة والأمكنة : ٢ / ٣١٦

٧- الشعر والشعراء : ١ / ١٣٩

٨- شرح شواهد المغني : ٧٥٤/٢

٩- مختار الشعر الجاهلي : ٢٩٩

١٠- المفصل في تاريخ العرب : ٣١٧/٩

١١- المفصل في تاريخ العرب : ٣١٤/٩

المصادر والمراجع :

- الأزمنة والأمكنة – للمرزوقي (ت٤٢١هـ) ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف بالهند ، حيدر أباد ، الدكن ، ١٣٣٢هـ .
- الأغـاني – لأبي الفرج الأصفهاني ، مصورة دار الكتب المصرية ، د.ت .
- شرح ديوان زُهير – صنعة ثعلب ، طبعة دار الكتب ، ١٩٤٤م ، مصر.
- شرح شواهد المغني – للسيوطي ، تصحيح وتعليق الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي ، لجنة احياء التراث العربي ، (د.ت) .
- الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، دار المعارف ، ١٩٨٢م ، القاهرة .
- مختار الشعر الجاهلي – لهبة الله بن علي أبو السعادات العلوي المعروف بابن الشجري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطبع ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٧٥م.
- مختارات أشعار العرب – للأصمعي عبدالملك بن قريب (ت٢١٦هـ) ، شرح وترتيب عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، ط٤ ، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م القاهرة .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – د. جواد علي ، ١٩٧٨م ، بيروت .

المقالة الثانية عشرة

من دلالات المحاورة : المشاجرة

من دلالات المحاورة : المشاجرة

الحوارُ كما هو معروفٌ في المجتمعات ومتداولٌ وشائعٌ فيها ، هو تبادلُ الأحاديثَ والأفكار والاقوالَ ، وسماع رأي الطرف الآخر ومناقشته ، وفي أكثر الأحيان يتسمُ الحوارُ بالمودَّةِ والمحبةِ للوصول الى تفاهمٍ مُقنعٍ بين الطرفين المتحاورَين ، فقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور (١) : (المحاورة : المجاوبة ، والتحاور : التجاوب) ، وهذا يعني أنكَ تسمع من المقابل رأيه وتناقشه فيه بروح علمية وأدبية وبهدوء ، ومن معاني المجاوبة الأخرى قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٢) : (يرجعُ إليكما ابناكما بحَوْرٍ ما بعثتما به) ، أي يعودا إليكما بالخيبة والخسران والإخفاق ، وأضاف ابن منظور (ت٧١١هـ) قائلاً (٣) : (المحاورةُ : المراجعة في المنطق ، والكلام والمخاطبة) ، وحاورهُ : تعني أنَّهُ تبادلَ معهُ الرأي والكلام ، كما تأتي المُحاورة أحيانًا على وزن ((مُحْوَرَة)) ، كما قال الشاعر (٤) :

لحاجِةِ ذي بثٍّ ومُحْوَرَةٍ له كفى رُجعُها من قصَّةِ المُتكلمِ

وأصل الحّوْر : هو الرجوع الى النَّقص ومنه حديث عُبادة (٥) : (يُشِكُ أنْ يُرى الرَّجُلُ من ثبجِ المسلمين (٦) قراء القرآن ، كما لا ينتفعُ بالحمار الميت صاحبه) .

ولمّا قرأتُ سورة الكهف المباركة ، الآية الكريمة (٧) : { وقالَ لصاحبهِ وهو يحاورَهُ : أنا أكثرُ منكَ مالًا وأعزُّ نفرًا } ، وهي في نطاق المفاخرة بكثرة الأموال والأولاد ، لم أجدْ في هذه المحاورة مودّةً ولا محبةً ، ولم أقتنعْ بأنَّها محاورةٌ ودية ، لأنَّها لا تدلُ على تفاهم ، بلا رأيتُها - واللهُ أعلمُ – أنَّها مجرد مجادلة ، ومُشاجرةٍ لسانية ، ومنافرة في كثرة الأموال والأولاد بين الطرفين المتحاورين (٨) ، وإذا قلت : اشتجرَ القومُ ، فذلك يعني اشتبكوا في آرائهم ، واختلافها وتناقضها حول موضوعٍ ما ، إذن المشاجرة هنا تدل على المنازعة (٩) واختلاف الرأي ، ومنه قوله تعالى (١٠) :{ فلا وربِّكَ لا يؤمنونَ حتى يحكمُوكَ فيما شجرَ بينهُم } ، أي فيما وقع بينهم من خلافٍ ونزاع ، وأصل المشاجرة هو الاشتباك في الوقائع والأيام بالرماح ، وأنا أرى من خلال فهمي للآية الكريمة ،

أنَّ التشابك وقع بين الطرفين المتحاورين في الكلام ، وليس بالأيدي والرماح ، وأما دعاء الطرف الثاني على الطرف الأول فجاءَ في قوله تعالى (١١) { ولولا إذْ دخلتَ جنتكَ، قُلتَ ما شاءَ اللهُ لا قوة إلا بالله ، إنْ ترني أنا أقلُ منكَ مالًا وولدًا ۞ فعسى ربي أنْ يؤتيَني خيرًا من جنتك ، ويرسلُ عليها حُسبانًا من السماءِ فتصبحُ صعيدًا زلقًا } ، فالآيتان الكريمتان تشيران الى دعاء الطرف الثاني على الطرف الأول ، بأنْ يهلك الله ماله وأولاده ، فأين المودَّة والمحبة في هذا الدعاء الساخط الرامي الى الانتقام ؟ بل لا أراهُ إلا مشاجرةً عنيفة وخصومة قوية ، دعا فيها المظلوم ربَّهُ أنْ يهلك مال الظالم وأولاده ، وذلك بعد أنْ انتقص من قيمته الشخصية ، وعابه بقلةِ أموالهِ وأولادِهِ ، فالمظلومُ يدعو اللهَ سبحانه وتعالى ، أنْ ينتصف له من الظالم ، فيعطه أحسن مما أعطى الظالم ، ويعاقبَ الظالم في الدُّنيا قبل معاقبته في الآخرة ، وذلك بزوال نعمتهِ التي لم يحسن إدامتها وشكرها ، وذهاب ماله وأولاده هباءً منثورًا ، وقد استجاب الله سبحانه لدعاء المؤمن المظلوم ، وذلك من خلال قوله تعالى (١٢) : { وأُحيطَ بثمرهِ فأصبحَ يقلبُ كفيْهِ على ما أنفقَ فيها ، وهيَ خاويةٌ على عروشِها ، ويقولُ يا ليتني لم أُشركْ بربي أحدًا } ، فقد أهلك الله سبحانه وتعالى الأشجار وثمارها ، والإحاطة تعني الشمولية والهلاك الكلي الذي لم يبقِ ، ولم يذر ، والظالم يعلن ندمه حينما لا ينفع الندم ، وهو يضرب يديه واحدة بالأخرى على هلاك الأموال التي أنفقها في رعايتها حتى أثمرت ، وقوله خاوية على عروشها يعني هلاك أشجارها وموتها ، وقد أصبحت أثرًا بعد عين ، ونلحظ هنا أنَّ الله سبحانه وتعالى استجاب لدعاء المظلوم في الشق الأول ، وهو هلاك أمواله ، ولم يستجب لدعائه في الشق الثاني بهلاك أولاد الظالم ، لأنَّهُ لا ذنب لهم فيما جرى من المحاورة (المشاجرة) بين أبيهم وخصمه ، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب أحداً بجريرة غيره (١٣) .

ومن معاني المشاجرهو مراكب النساء (الهوادج) مشاجر ، وواحدها مشجر وذلك لتشابك عيدان الهودج فيما بينها (١٤) ، ومن معاني الشجر وضع اليد تحت الحنك (١٥) ، قال أبو ذؤيب الهذلي (١٦) :

نام الخليُّ وبتُّ الليل مُشتجراً كأنَّ عيني فيها الصّابُ مذبوحُ

وهنا على المسلم المؤمن أن لا يتكبر ، ولا يتعالى على غيره ، وعليه أنْ يتواضعَ ، لينال رضى الله عنه أولًا ، ويرفع من شأنَهِ بين الناس ثانيًا ، فتكون له مكانةً اجتماعية مرموقةً ، يكون قد اكتسبها من خلال صدقه مع الله ونفسه ، وتعامله الصحيح مع الناس والمجتمع ، وأخيرًا أتمنى أنْ أكونَ قد وفيتُ في إعطاء دلالة المحاورة في سورة الكهف على أنَّها المشاجرة ، وهل بعدما تقدم ، يمكن أنْ نقول : أنَّها محاورة ودية ، مستحيل ذلك بل هي مشاجرة حامية ، فأنْ أصبتُ في فهمي لما جاء في الآيات الكريمات من سورة الكهف ، فذلك بفضلٍ من الله وتوفيقه ، وأنْ جانبتُ الصواب وأخطأتُ فيه ، فحسبي أنَّ نفسي هي الخاطئة ، وسبحانَ من لا يُخطأ ، والحمدُ للهِ أولاً وآخراً ، وصلى الله تعالى على محمد واله الطيبين الطاهرين الكرام .

الهوامش :

١- معجم لسان العرب مادة : حور

٢- بحار الأنوار : ٤١ / ١١٢

٣- معجم لسان العرب : مادة حور

٤- تفسير الرازي الرقم : ١٢٢١٩

٥- معجم لسان العرب : مادة حور

٦- ثبج المسلمين : أي من وسطهم ، معجم لسان العرب : مادة ثبج

٧- سورة الكهف الآية : ٣٤

٨- معجم لسان العرب مادة : شجر ، ومن معانيها : التشاجر : أي التشابك

٩- معجم لسان العرب مادة شجر

١٠- سورة النساء الآية : ٦٥

١١- سورة الكهف الآيتان : ٣٩ - ٤٠

١٢- سورة الكهف الآية : ٤١

١٣- مجمع البيان : ٦ / ٢٧٦

١٤- معجم لسان العرب : مادة شجر

١٥- معجم لسان العرب مادة شجر

١٦- اشعار الهذليين : ١ / ٨٨

المصادر :

- القرآن الكريم
- بحار الأنوار لجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار – للشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ) مؤسسة الوفاء في بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، بيروت .
- تفسير الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ، ومفاتيح الغيب – للإمام الجهبذ الرازي ؛ طبعة دار الفكر . (نت) .
- مجمع البيان في تفسير القرآن – تأليف الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (من أكابر علماء الإمامة في القرن السادس) ، وضع حواشيه وخرج آياته وشواهده ابراهيم شمس الدين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، بيروت – لبنان .
- معجم لسان العرب – لابن منظور ، أعاد بناءه على الحرف من الكلمة يوسف خياط ونديم المرعشلي ، بيروت ، (د.ت) .

المقالة الثالثة عشر

موازنة بين العقاب والنسر

موازنة بين العقاب والنسر

العِقابُ والنَسْرُ كلاهُما من الطيورِ الجارحة والمفترسة ، وقد عرفَهما العربُ منذ القدم ، وذكروهُما في أشعارهم وتغنوا بهما ولاسيما الشعراء الفرسان منهم ، فكانوا يشبهون أنفسهم وخيولهم بها ، وهي تعدو بهم في ساحات الوغى ، ومطاردة الأقران من فرسان الأعداء ، فالعقابُ هو أكبرُ الجوارحِ حجمًا بعد النَسْر ، والعقابُ اسمٌ يُطلقُ على الذكورِ والإناثِ ، وبعضهم يقول : أنثى العقاب يقال لها لقوة ، وهي أشدُ شراسة وضراوة من الذكر ، واللقوة تضع بيضة واحدة إلى أربع بيضات ، وهي التي تتولى رعاية صغارها وإطعامهم ، والمحافظة عليهم لمدة تتراوح بين ٤٠ يوماً إلى ٤٥ يومًا ؛ ولا يبقى على قيدِ الحياة من أفراخِها إلا واحد أو اثنان ؛ لذلك تكون اللقوةُ أشدُ ضراوةً وشراسة من الذكر ، والعقابُ طائرٌ من العتاق ، قال ابن الأعرابي : عتاقُ الطيرِ العُقبان ؛ وسباعُ الطيرِ التي تصيد (١) ، واللقوةُ هي العقاب الخفيفة ، السريعة الطيران والانقضاض على فريستها ، قال أبو عبيدة : سُميت العقابُ لَقوْةٌ ، لسعةِ أشداقها (٢) ، وقد ذكرَ الشعراءُ العقابَ كثيرًا في شعرِهم ، وقد اخترتُ هذا المثال للشاعر الأسدي عَبيدُ ابن الأبرص ، وهو يقصُ علينا رحلة تحرر قبيلة بني أسدٍ من رَبقِ العبودية ، ونيرِ ظلم الملك حجر بن الحارث الكندي ملك مملكة كندة ، وحكمه الجائر ، فشبه ثورتهم باللقوة (أنثى العقاب) المتأهبة للانقضاض على فريستها المتمثلة بثعلب فقال (٣) :

كـأنَّها لقـوةٌ طلــوبٌ تخزنُ فــي وكرها القلوبُ

باتتْ على إرمٍ رأبئــة كأنَّها شـــــيخةٌ رقوبُ

فأصبحتْ في غداةِ قرَّةٍ يسقط عن ريشها الضريبُ

فأبصرتْ ثعلباً من ساعةٍ ودونـهُ ســــبٌ جديــبُ

فنفضتْ ريشها وانتفضتْ وهــي مـن نهضـة قريـبُ

فاشتالَ وارتاعَ من حسيسها وفعلـهُ يفعلُ المــذؤوبُ

فنهضتْ نحـوَهُ حثيثـــةً وحـردتْ حـردةً تســـيبُ

فدبَ مـــن رأيها دبيبـــاً والعـينُ حملاقهـا مقلـــوبُ

فأدركتـــهُ فطرحتـــــــهُ والصيدُ من تحتها مكروبُ

فرنحتـــهُ ووضعتـــــــهُ فكدحتْ وجهـهُ الجبـــوبُ

فعاودته فرفعتـــــــــهُ فأرسلته وهو مكـــــروبُ

يضغو ومخلبها في دفّهِ لابدَّ حيزومه مثقـــــــوبُ

يقصُ علينا عَبيدُ بن الأبرص قُصتينِ منفصلتينِ تداخلتا معاً في قصةٍ واحدةٍ بطريقةٍ دراميةٍ فنيةٍ رائعةٍ ومثيرةٍ ؛ فكانتْ نهايتهُما متشابهة من حيث النتيجة ، فقد تشابهتا في أحداثهما ؛ واشتركتا بذاتِ الكلماتِ والمسار، لذلك كانتا قصة واحدة ولكنّها اتخذت مسارينِ متوازيين وبكلمات موحدة ، لتكون نهايتهما واحدة ، إذ انتفض الأسديون على الملك الظالم وقتلوه ، وبذلك عُتقتْ رقابهم من ربقِ العبودية ، وقد شبه الشاعر ثورة قومه وصولتِهم على الملك حجر بن الحارث الكندي ، بثورة اللقوة وصولتها على الثعلب ، فاللقوة كانت رمزًا لشباب بني أسد المتحفزين للثورة والانقاض على الملك الظالم ، لتحرير أنفسهم من ربق العبودية ؛ فيما كان الثعلبُ رمزًا للملك الظالم المتسلط على رقاب شعبه (قبيلة بني أسد) ، والوكر هو بيت اللقوة الذي ملأته من قلوب فرائسها ، لأنَّ العقبان لا تأكل قلوب الطير ، والوكرُ في الوقت نفسه يمثلُ ديار قبيلة بني أسدٍ ومنازلها ، والقلوبُ ترمزُ إلى الآهات والآلام والجراحات التي ملئت قلوب الأسديين ، لذلك شبه الشاعر قومه بنو أسد بتلك اللقوة ، وهم يتحينون الفرصة للانقضاض على الملك الثعلب ، وقد شبه الشاعر قبيلة بني أسد بامرأةٍ عجوزٍ فقدت ولدها الوحيد ، وهذا اللون من الفقدِ هو الأشدُ إيلاماً على المرأة ؛ فهيَ في مثلِ هذا العمر المتقدم، إنْ فقدت وليدها لا تلد غيره ، على العكس تماماً من المرأة الفتية وهي في مقتبل عمرها ، فهي إنْ فقدتْ ولدها ، تلدُ ولداً غيره ، واللقوة وهي تقف على مربأ عالٍ ترصدُ الأحداث في جوٍّ باردٍ قارسٍ ، تتحول قطراتُ نداهُ إلى حُبيباتِ لؤلؤٍ من شدةِ التجمد وسرعتِهِ ، لذا فهي تنفضهُ عن ريشها بينَ الحينِ والآخر ، وهذا يعبرُ عن صبرِ بني أسد وتحفزهم للإنتفاض على الملك بين الحين والآخر

بانتظار الفرصة المناسبة ، وكأنَّ الفرجَ قريبٌ منهم ، وهذه اللقوة أبصرتْ الثعلبَ قد خرجَ من مغارته يلعبُ ويتبخترُ ، مزهوًا بنفسه في أرض منبسطة ، والثعلب هنا يرمزُ إلى الملك الذي خرجَ هو الآخر مزهوًا في موكبهِ الملكي في أرضٍ مستويةٍ ، ومن هنا بدأت نقطة الصفر ، فانقضتْ اللقوةُ على الثعلب ، وفي الوقتِ نفسه انقضَ فرسانُ بني أسدٍ ورجالهم على الملك الظالم وموكبه ، فلما شعر الثعلب - الملك - بالموت قد أحاط به ، وأخذ يرفرفُ فوق رأسه ، ارتعبَ وامتلأَ قلبُهُ هلعًا ورعبًا وخوفًا من أنْ يكون قد وصل إلى نهايته مأساوية ، فتحملقتْ عيناهُ مثل الذي أصبح في قبضةِ الموتِ مستسلمًا مسلوبَ الإرادة ؛ لا حول له ولا قوة ، بعد أنْ أحاطَ بنو أسد بموكبه من كلِّ مكانٍ ، فأيقنَ أنَّهُ الموتَ ولا مفرَّ منه ، فأسرع الثعلبُ - الملك - لعلَّ في السرعةِ نجاةٌ ، ولكنَّ اللقوةَ كانت أسرعُ فأدركتْ الثعلب ، فغرستْ مخالبها في جسمه ، مثلما أدرك فرسان بني أسد الملك حجر بن الحارث الكندي ، وطعنوه برماحهم طعناتٍ نافذةٍ في جنبيه ، فتجدلَ الملك – الثعلب - مصروعًا تحتَ مخالبَ اللقوة ، وأقدام فرسان بني أسد ، فأصبح الثعلب يعوي ((يضغو)) من شدة آلام مخالب اللقوة النابتة في جسمه ، والملك يصرخ من شدة آلام طعنات الرماح التي مزقت جنبيه ، وهذه القصة وعلى الرغمِ من قصرِها وازدواجِ مدلولها ، إلا أنَّها مثلتْ ثورة المظلوم على الظالم ، وصولة الحقِّ على الباطل ، فوجدنا الطغاة في ملكهم أقوياء ولكنَّ قوتهم في واقع الحال هشة ، لأنَّهم يستمدونَها من البطانةِ المحيطة بهم ، لذا فعندما تتمزق تلك البطانة ، يظهرون على حقيقتهم ضعفاء مثل الثعالب لا حول لهم ولا قوة ، واللقوة أنثى العقاب ، كانت خيرُ رمزٍ لقبيلة بني أسد الثائرة بوجه الذلِّ والاستعباد ، فيما كان الثعلبُ هو الرمز المناسب للملك الظالم الطاغي .

أما النَسْرُ فهو أكبرُ الجوارحِ حجماً ، قال الجوهري (٤) : (النَّسْرُ لا مخلب له ، وإنَّما له ظُفُرٌ كظفرِ الدجاجةِ والغرابِ والرخمةِ) والنَسْرُ معروفٌ بطيرانِهِ العالي ، والنسورُ من الجوارح الاتكالية الكَسُولة التي تعتاشُ على الصيدِ الجاهز والفضلات ، لأنَّها لا تجيدُ القنص ، لذلك هي تأكلُ لحومَ الأمواتِ والجيفِ ، وما تخلفهُ الحروب والغزوات من القتلى وأشلائهم ، لذا فهي معروفةٌ عندَ العربِ بضباعِ الطير ، لأنَّ ضباعَ الكواسرِ هي الأخرى تأكلُ لحومَ الموتى وأشلاءَ القتلى والجيف ، وقد أكدَ هذه الحقيقة الشعراءُ العرب ، فهذا بشرُ بن أبي

خازم الأسدي يتوعدُ أعداءَهُ من بني كلاب ، بأنَّهُ سيجعلُ رجالهم طعاماً للنسور والغربان فقال (٥) :

فلـو عاينتنا وبني كــلابٍ سـمعتَ لنا بعقوتِهم زئيرا

وكمْ من جمعِ قومٍ قد تركنا ضباعَ الجوّ فيهم والنُسورا

وهذا المهلهل بن ربيعة التغلبي يتوعدُ أعداءَهُ من قبيلةِ بكرِ بن وائل ، بأنَّهُ سيجعلُ رجالهم طعامًا لضباعِ الجوّ والنسورِ فقال (٦) :

ولأترُكَنَّ رجــالَ بكرٍ كلهُـمُ صَرعى بكلِّ قرارةٍ ومكـــانِ

قتلى تُباكرُها النسورُ وتمتلي منها خماصَ حواصلَ الغربانِ

ويعود المهلهل بن ربيعة التغلبي ثانية ؛ فيقولُ مفتخرًا بقتله بُجيرً بن عَباد وهُمام ابن مرة البكريين وتركهما طعامًا للنسور (٧) :

وهتكتُ به بيوتَ بني عبادٍ وبعضُ الغشمِ أشفى للصدورِ

وهـمام بـن مـرة قـد تركـنا عليه القشـــمعانِ من النسـور

القشمعان هو النَسْرُ العجوز الذي تقدمتْ به السنُّ ؛ فأصبحَ لا يستطيعُ الحصولَ على طعامهِ إلا بصعوبةٍ وذلك لضعفهِ وعجزهِ ؛ وقد وفرَ لهُ المهلهل بن ربيعة الطعامَ من خلالِ قتلهِ لرجالاتِ قبيلةِ بكرٍ بن وائل .

والآن وبعدَ أنْ وقفنا على العِقاب والنَسْر من خلالِ الشعرِ العربي الجاهلي، نقيمُ موازنةً بينهُما وهي كما يأتي :

١- العقابُ لهُ مِنقارٌ مقوسٌ وحادٌ ، وللنَسْرِ مِنقارٌ عادي يشبهُ مِنقارِ الدَّجاجة .

٢- للعقاب مخالبٌ يغرسُها في جسمِ طريدته ، والنَسْرُ لهُ أظافر تشبهُ أظافرَ الدَّجاجة يستخدمُها للإمساكِ بفريستهِ الميتة .

٣- العقابُ لا يأكلُ إلا مما يصطادَهُ بنفسِهِ ، والنَسْرُ يأكلُ اللحومَ الميتةِ والجيف ومُخلفات الحروب وغيرها .

٤- العقابُ كريمُ النفسِ يشركُ معه في فريسته أبناء جنسه ، والنسرُ بخيلٌ لئيمُ الطبعِ ، لا يسمحُ لأحدٍ مشاركته في الطعام .

٥- العقابُ يحبهُ العربَ ، فدجنوه وقاموا بتدريبهِ على الطردِ والقنصِ ، في حين لم يحضَ النسرُ بذلك .

وفي ختام هذهِ المقالة أقولُ : هذا ما اخترتَهُ من الشعرِ المعبرِ عن طبيعةِ العقابِ والنَسْرِ ، فأقمتُ بينهُما موازنةً ، وأرجو أنْ أكونَ موفقًا فيما اخترتُ من الأمثلةِ ، وإنْ جانبتُ الصوابَ فذلك حسبَ فهمي للشعر ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على نبيينا محمّدٍ والهِ الطيبينَ الطاهرينَ .

الهوامش :

١- لسان العرب مادة : عقب

٢- لسان العرب مادة : لقا

٣- ديوانه : ١٨ ــ ٢٠

٤- لسان العرب مادة : نسر

٥- ديوانه : ٩٣

٦- المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره : ٣٤٥

٧- المهلهل بن ربيعة : حياته وشعره : ٢٥٨

المصادر

- ديوان بشر بن أبي خازم - تحقيق د.عزة حسن ، وزارة الثقافة ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ، دمشق .
- ديوان عبيد بن الأبرص - تحقق وشرح الدكتور حسين نصار ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وألاده ، ط ١ ، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م ، مصر .
- لسان العرب - لابن منظور (ت٧١١هـ) ، دار لسان العرب ، بيروت ، (د.ت).
- المهلهل بين ربيعة : حياته وشعره - دراسة وتحقيق نافع منجل شاهين الراجحي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الآداب - الجامعة المستنصرية ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

المقالة الرابعة عشر

موازنة بين ثور الوحش وحمار الوحش

موازنة بين ثور الوحش وحمار الوحش

وجود الحيوانات في لوحة الرحلة في الشعر العربي له دلالات ومعانٍ متعددة ومختلفة من حيوان الى آخر ، وسنقف في هذه المقالة على نوعين فقط هما : ثور الوحش وحمار الوحش ، فثور الوحش حيوان بري صحراوي نباتي يقتاتُ على الحشائش ، ويتميز بقوته وسلاحه الفتاك المتمثل بالقرنين المدببتين ، وهو معروف عند المجتمعات القديمة ، مثلما عرفه العرب في جزيرتهم ، فأعجبوا بقوته وشجاعته ، وحُسن بلائه في القتال ، والدفاع عن نفسه ، ولاسيما أنَّهم أصحاب الغزوات والغارات والحروب مما يتطلب منهم القوة ، فتمنوا تلك القوة لو كانت عندهم ، فإذا ما علمنا أنَّ ثور الوحش يعيش منفردًا عن قطيع البقر ، ويقاتل منفردًا معتمدًا على نفسه ، فمعنى أنَّهُ يرمز الى البطولة الفردية لفرسان القبائل وشجعانها ، أمّا حمار الوحش فهو الآخر حيوان بري صحراوي نباتي يقتات على الحشائش ولكنَّهُ لا يعيش منفردًا إلا مع أتانٍ أو أتانتين أو ثلاث أتانات ، ولكل حالة من هذه الحالات مدلول خاص بها ، فالحمار صاحب الأتان الواحدة يرمز للأسرية ، وأمَّا صاحب الاثنين والثلاث فهو يرمز للقبيلة والعشيرة ، وكذلك يتميز حمار الوحش بالقوة والشجاعة إلا أنَّهُ مسالمٌ وغيرُ مقاتل ، وسوف نقف في هذه المقالة على نموذجٍ واحد لكُلِّ حيوانٍ ، مبتدئين بثور الوحش ، فقد قال الشاعر الأعرج الطائي (١) :

١- كأنها بعدما خفت ثميلتهـا من وحشِ جبةِ موشي الشوى لهقُ(٢)

٢- أحس غُنماً ولا يواري طلعته على مدارعِهِ من شملةٍ خـرقُ (٣)

٣- يقودُ غُضفاً دقاقاً قد أحالَ بها أكل الفقارِ ومن أقواتِها السرقُ (٤)

٤- مقلدات بأوتارٍ ومـن قـــددٍ كأنـَّهُنَ علـى أعناقِها ربــقُ (٥)

٥- فبثهنَ بطاوي الكشحِ مجردٍ كأنَّ أظلافهُ يهوى بها زهــقُ

٦- على قرى صحصحانَ يعتلنَ بهِ حتى تداركنهُ لما استوى الفلـقُ (٦)

٧- كأنـَّهنَ إذا أغرينَ عاصيــة خضع الرقابِ وفي أحداقِها زرقُ

٨- فكـرَّ ثبتاً معيدَ الطعنَ ذا نزل طعنَ المبيطرِ إذ ناهى بهِ يشـقُ

٩-حتى تحاجزنَ عنهُ بعدما كثرتْ منها الدمي على آثارِهِ دفـقُ

١٠- فظلَّ غـُنمٌ كئيباً عندَ أكلبــهِ ولم يصده فتيلاً ذلك الطلــقُ

١١- ثمتْ ولى على دحٍ مسلمــةٍ تعلو الأواعسَ كالعيوقِ يأتلقُ(٧)

وصف الشاعر الجواد الذي يمتطيه بأنَّهُ جواد رشيق ، ضخم الجثة ، خالٍ من العيوب ، عبر الشاعر من خلال ذلك عن فروسيته وشجاعته ، ليرسم صورة متناسقة الألوان ، فالجواد أصيل ، صافي اللون ، غير أنَّ في إحدى قوائمه بياضًا، وأنَّ هذا الجواد يمتاز بالقوة ، وسرعة الجري ، ثُمَّ انتقل ليرسم شخصيته من خلال وصفه لجواده الصافي اللون الخالي من العيوب ، والجواد في هذا المقطع من لوحة الرحلة يمثل كناية عن الفارس ليعبر من خلال الجواد عن بطولته وشجاعته في التصدي للمهمات الصعبة دفاعاً عن حياضِ القبيلة .

بعد أنْ شبه الشاعر سرعة جواده بثورٍ وحشٍ مستفزٍ مطاردٍ يجري بأقصى سرعة ، يريد النجاة بنفسه ، والإفلات من قبضة الموت الذي يرفرف فوق رأسه ، وكلاب الصيد تطارده بلا كللٍ ولا مللٍ ، ولمّا لحقنَ به ، وكدنَ ينهشن قوائمه الخلفية ، ارتد عليهن ليدخل معهن في صراع دموي ، الشاعر هنا رسم لنا مشهدًا دراميًا ؛ فثور الوحش الموشى ، قد أحس بالخطر المحدق به ، من خلال حدسه الذي أنبأه أنَّ صيادًا يتربص به ، ومعهُ كلابَ سلقٍ مدربةٍ ، أطلقها تبحث عن الثور في مكان احتمائه ، وكان حدس الثور صادقًا ، لذا فما كاد الصبحُ أن يتنفس ، حتى أطلق الثور العنان لقوائمه لتجري به بسرعةٍ متناهيةٍ ، وكانت منطقة صحصحان هي مسرح الصراع ، فلما أصبح الثور والكلاب يعدوان في أرض مستوية ، لحقن به ، وكدن ينهشن قوائمه الخلفية ، وهنا تقين الثور أنَّهُ الموت ولا خلاصَ منه ، إلا أنْ يكرَّ عليهن دفعًا للموت الزؤام الذي أصبح رهينة في يديه ، وما عليه إلا أنْ يدفع الموت عن نفسه ، من خلال قبول التحدي ومنازلة الكلاب ، وذلك بعد أن ابتعد عن الصياد ، وأمن من شرّ قوسه وسهامه ، فما عليه إلا أنْ يحارب من أجل البقاء والظفر بالحياة ، فكر عليهن بثقة عالية بالنفس ، نطحًا بقرنيه المدببتين ، وركلًا برجليه القويتين ، فتخرق قرناه

أينما أصابت ، فمزقهن وصرعهن ، فانحسرت الكلاب وتراجعت أمامه بعد أنْ أخذت الدماء تتدفق من جروحها العميقة ، ومن شدة ما بها من الآلام وعمق الجروح ، تكاد أنْ تفيضَ أرواحُها ، ليفوز الثور بوسام الحياة ، ويواصل عدوه مزهوًا بما حققه من نصر كبير ، وكأنَّهُ كوكب مضيء ، وكان يجري فوق أرض مستوية ، وهي تتيح لهُ سرعة الجري ليبتعد عن مواطن الخطر ، وفي الجانب الآخر كان الصياد كئيبًا لما آل إليه حاله وحال كلابه ، لينسحب من ساحة الصراع مستسلمًا ، وقد أطلق لعينيه الدموع ، إذ كانت حالته لا تسر ، فهو من شدة حيرته واضطرابه ، لا يستطيع أنْ يميز بين الأبيض والأسود ، فهو يرى البرق المضيءَ أسودًا حالكًا، والأعرج أراد من خلال هذه المعادلة أنْ يقول لعدوه : أنَّهُ أهلٌ لتحمل المصاعب والشدائد وتجاوزها بقوة من أجل الدفاع عن قبيلته ، فهو يتجاوزها بثقة عاليةٍ بالنفس ، ليحقق ما يصبو إليه ، فيما يحصد عدوه الخيبة والخسران .

امَّا لوحة حمار الوحش فقد قال الشاعر عمرو بن قميئة (٨) :

١- كأنّي حينَ أزجرهُ بصوتــي زجرتُ بهِ مُدلاً أخدريّــا(٩)

٢- تمهَّلَ عانةً قد ذبَّ عنهـــا يكون مصامُهُ مها قصِيّا(١٠)

٣- أطالَ الشدَّ والتقريبَ حتــى ذكرتَ بهِ مُمرّاً أندريّــا(١١)

٤- بها في روضةٍ شهري ربيع فسافَ لها أديماً أدلصيّــا(١٢)

٥- مُشيحاً هل يرى شبحاً قريباً ويوفي دونها العلم العليّـا

٦- إذا لاقى بظاهرةٍ دحيقـــاً أمرَّ عليهما يوماً قسيّــا(١٣)

٧- فلما قلصت عنه البقايـــا وأعوزَ من مراتعهِ اللّويّا(١٤)

٨- أرنَّ فصكها صَخِـب دؤول يعبُّ على مناكبها الصَّبيّا(١٥)

٩- فأوردها على طمْلٍ يمـــانٍ يُهلُ إذا رأى لحماً طريّا(١٦)

١٠- لهُ شريانةٌ شغلتْ يديـــهِ وكانَ على تقلدها قويّــا(١٧)

١١- وزرْقٌ قد تخللها لقضـبٍ يشدُّ على مناصبها النَّضيّا(١٨)

١٢- تردّى بُرأةً لما بناهـــــا تبوأَ مقعداً منها خفيّـــا(١٩)

١٣- فلما لم يؤَيْنَ كثيرَ ذُعْـــرٍ وردنَ صواديا ورْداً كميّا(٢٠)

١٤- فأرسلَ والمقاتلُ مُعـوراتٌ لما لاقتْ ذُعافاً يثربيّـا(٢١)

١٥- فخرَّ النَّصْلُ مُنعقصاً رثيماً وطارَ القدْحُ أشتاتاً شظيّا(٢٢)

الشاعر عمرو بن قميئة يسردُ علينا قصة حمار وحشٍ وأنثاه يرعيان خلال فصل الربيع في روضة من رياض الجزيرة العربية لمدة شهرين ، وهما يرتعان لما في هذه الروضة من مياهٍ وأعشابٍ ، وبعد أن انقضى فصلُ الربيع ، وقلت المياه أو كادت أنْ تجف ، فيما ييبس العشب ، هنا بدأ حمار الوحش يفكر بمكان بديل للهجرة إليه ، فتدافع مع أتانه الى غدير ماءٍ ، حيثُ يمنيان النّفس بالارتواء منه ، فما يكادان يصلان حتى يجدا القدر مخبئاً لهما قرب الغدير ، متمثلاً بصيادٍ بائسٍ يمني نفسه بصيدٍ سمين ، ، ولكنَّ الحظَّ يشاء ، أو قل المصادفة أنْ تخيبَ رمية الصياد ، فيجفلُ الحمار وأتانه ، فيطلقان قوائمهما للريح هربًا من الموت وطلباً للنجاة ، وفي الوقت نفسه وجدنا الصياد البائس يعضَّ على أصابعهً ندمًا على ما فاته من الصيد ، فهذه الصورة المتكاملة ، التي رسمها الشاعر عبرَ من خلالها بحال الدَّنيا ، فهيَ تُمني ابناءها بالأحلام الوردية ، وتعدهم بالأماني الخُضر ، فما تكاد تقترب لحظة الفرح أو لحظة الإيفاء بالوعود ، حتى تخيب أمل الجميع ، فلا الصياد ظفر بما تمنى ، ولا الحمار وأتانه ارتويا من الماء .

بعد أن وقفنا على لوحتين من الصراع ، مثلت الأولى ثور الوحش ، ومثلت الثانية حمار الوحش ، الآن نقف على اللوحتين لنرى اوجه التشابه بينهما ومن ثّمَّ نجري موازنة بين اللوحتين ، وجه الشبه الأول يتمثل أن الثور والحمار يعيشون مع القبائل العربية في جزيرتهم ، والوجه الثاني كلاهما بري نباتي ، والوجه الثالث كلاهما يصارع الصياد بصورٍ مختلفة ، والأن نقيم الموازنة بينهما :

١- ثور الوحش وحمار وحش في كلِّ حالاتهما يرمزان الى البطولة ، إلا أنَّ الثور يرمز للبطولة فردية التي وظفت لصالح الفرد (الشاعر الفارس) المفتخر ببطولته وفروسيته الشخصية ، فيما وظف رمز حمار الوحش وأتانه للبطولة فردية أيضاً ؛ ولكنّها توظف لصالح الأسرة والقبيلة .

٢- الصياد في لوحة ثور الوحش يتخفى بين الأدغال وبين الشجيرات في المراعي ، في حين يتخفى الصياد في لوحة حمار الوحش في مرقبة قرب موارد المياه .

٣- الصياد في لوحة الثور ترافقه كلابُ سلقٍ مدربة ، أما في لوحة الحمار فيكون الصياد لوحده .

٤- الصياد في لوحة الثور يطلق كلابه وراء الثور عند انبلاج الضوء الأول من الفجر ، فيما يطلق صياد الحمار سهمه على الحمار بعد أنْ يمهله بعض الوقت لارتشاف شيئاً من الماء ، وعادة ما يكون ذلك متزامناً مع وصول الحمار واتانه إلى مورد الماء بعد منتصف الليل .

٥- لوحة صراع الثور مع الصياد وكلابه تنتهي بانتصار الثور ومقتل الكلاب ، فيما تنتهي لوحة صراع الحمار مع الصياد بفشل رمية الصياد وهرب الحمار واتانه .

٦- الثور يقبل التحدي مُضطراً ، ويدخلُ في صراعٍ ضارٍ مع الكلاب ، أما الحمار فيختار الهرب من المواجهة .

٧- الثور يمتلك عُدة الصراع المتمثلة بقرنين قويين مدببين ، والحمار أعزل لا يمتلك عدة المواجهة .

٨- بمجرد فشل رمية الصياد ، وفرار الحمار واتانه من مورد المياه ينتهي الصراع مع الصياد ، وهذا بحد ذاته يعدُ انتصاراً للحمار ، لأنَّ الحفاظ على الحياة خيرٌ من فقدانها ، أما فرار الثور فلا ينتهي إلا بانتهاء الصراع الدموي ومقتل الكلاب .

٩- في كل الصراع مع الثور والحمار يخرج الصيادون خاسرون ، ولكنَّ الخاسر أكثر هو في لوحة صراع الثور ، إذ يفقد الصياد كلابه التي يعول عليها كثيرًا في الصيد.

١٠- هروب الثور في أول المواجهة يمثل حكمة عقلانية ، لأنـَّهُ في هذه الحالة يكون قد ابتعد عن الصياد ، ليكون صراعه مع كلاب السلق متكافئًا ، وبعيدًا عن خطر الصياد وسهامه القاتلة .

١١- يكون صراع حمار الوحش واتانه مع الصياد في فصل الصيف ، فيما يكون صراع ثور الوحش مع الصياد في فصل الشتاء في الليالي الممطرة المصحوبة بالبرق والرعد .

١٢- المراعي هي ساحة الصراع بين الصياد وكلابه مع الثور الوحش ، فيما تكون ساحة صراع الحمار الوحش مع الصياد قرب عيون المياه والغدران .

في الختام أرجو أن اكون توفقت في مقالتي هذه لأنال رضا القارئ الكريم ، والحمد لله أولًا وآخرًا وصلى الله على محمد وأله وصحبه وسلم .

الهوامش :

١- شعره : ٦٢ – ٦٣ ضمن الشعراء الفرسان .

٢- وحش جبة : ثور الوحش ، الشوى : جلدة الرأس ، لهق : ابيض شديد البياض

٣- غنم : الصياد

٤- السرق : نوع من أجود أنواع الحرير ، غضفا دقاقا : كلاب الصيد الرشيقة

٥- ربق : حبل تربط به البهائم ، وتعني هنا الطوق الذي يوضع في عنق الكلب

٦- الفلق : الصبح

٧- دح : الدفع وإلصاق الشيء بالأرض ، وهو قريب من الدس ، الأواعس : السهول اللينة من الرمال ، العيوق : كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا من ناحية الشمال ويطلع قبل الجوزاء .

٨- ديوانه : ٦٤ – ٦٦

٩- الأخدر : يقال أنَّهُ فحلٌ م الخيل أفلتَ فضرب في الحُمْر .

١٠- تمهّلَ : تقدم ، مصامُه : مقامُه ، العانة : الأتان

١١- مُمرّ : حبلٌ شديد الفتل ، أندري : منسوب الى قرية من قرى الشام ، الشدّ : العدو ، التقريب في عدو الفرس : أنْ يرفع يديهِ معاً ويضعهما معاً.

١٢- أسافَ : شمَّ ، مدلص : سمين

١٣- ظاهرة : ما ارتفع من الأرض ، دحيقاً : عيراً مطروداً ، يوماً قسيّاً : يوماً شديداً من حربٍ أو شرٍّ

١٤- قلصت عنه البقايا : ذهب بقايا مائه ، اللّوي : النبت الذي يبسَ وفيه نُدوة

١٥- أرنَّ : صاحَ ، دؤول من الدؤلان : وهو مشيٌ فيه تقارب ، يعبُّ : يجعل صبي لحيْه – وهو مستدقه – على مناكبها .

١٦- طمْلٌ : الصعلوك الأغبر الخبيث ، يهلُ : يكبرُ

١٧- شريانة : قوس ، والشريان شجرٌ تصنع منه القسي .

١٨- تخللها : تخيَّرها ، قضب : القداح ، والنضي : القِدْح

١٩- تردى : دخل فيها ، البرأَة : بيت الصياد

٢٠- صواديا : عطاشا ، كميا : خفيا

٢١- مقاتل معورات : مواضع إذا اصيبً بها الجسد مات منها .

٢٢- منعقص : ملتوٍ ، رثيم : فيه دم ، شظيّ : منكسر

المصادر :

- ديوان عمرو بن قميئة – عنى بتحقيقه وشرحه خليل ابراهيم العطية ، وزارة الاعلام ، مديرية الشؤون الثقافة العامة ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- الشعراء الفرسان ، قبائلهم وأخبارهم وسيرهم وما بقي من أشعارهم – جمع وتحقيق ودراسة أ.د.عبداللطيف حمودي الطائي ، نور حوران للدراسات ونشر التراث ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ٢٠٢٢م .

المقالة الخامسة عشر

القطاةُ : أنواعها وألوانها

القطاةُ : أنواعها وألوانـها

القطاةُ طائرٌ صحراويٌ صغيرُ الحجمِ ، والقطاةُ هيَ نوعٌ من أنواعِ الحمامِ، تعيشُ في جماعاتٍ واسرابٍ ، ولا تعيشُ منفردةً بعيدًا عن سربها مُطلقًا ، وهي تؤثرُ الحياة الصحراوية ، وتتخذُ أفحوصتها (١) في الأرضِ ، ولا تطيرُ القطاة بمفردها إلا في سربٍ أو مجموعةٍ ، ولها القدرة على الطيران وقطع مسافة طويلة قد تصل الى ((٦٠)) ستين كم ، ويكون لونُ بيضها مُرقطاً (٢) ، والقطاة بصورة عامة أقدامها قصيرة ومنقارها ناصٍ ، وهيَ تستريحُ في ضلالِ الأشجار، لأنَّها لا تستطيع تسلقها ، ويكون ذيلُ الذكر منها أشدُ قتامةً من ذيلِ الأنثى ، والانثى تستطيعُ فرد ريشها وجعله مثل المروحة مثل الطاووس ، وطعام القطا المفضل هو الحشرات واليرقات (٣) ومن معاني القطاة مقعد الرديف من الفرس(٤) .

أنواعُ القَطا وألوانُها : للقطا عدةُ أنواعٍ منها ما يأتي (٥) :

١- القطا المُتوج : ينتشر هذا النوع من القطا في شمال أفريقيا والشرق الأوسط ، وله القدرة على الطيران مسافاتٍ بعيدةٍ جدًا بحثًا عن الماء ، وهي لا تأخذ حاجتها من الماء إلا على دفعات ، لأنَّها شديدة الحذر ، ولها القدرة على الاحتفاظ بالماء في ريش بطنها لإيصاله الى صغارها ؛ وهذا النوع من القطاة يبني عشه في الأرض ، والأنثى هي من تبني العش بمفردها ولا تحتاج الى مساعدة الذكر ، وعندما يتم بناء العش ،تضعُ فيه ثلاثُ بيضاتٍ .

٢- القطا المُنقط : وهي من الطيور الرشيقة جدًا ، وتتميز بطول ذيلها مع عدم وجود فواصل بين البطن والصدر ، وتكون نقاط الذكر رمادية قاتمة، أما نقاط الأنثى فتكون قاتمة ، ويكون لونها شاحب ولون رأسها برتقالي مُصفر ، تضع أنثاهُ ثلاث بيضاتٍ ، وتكون مدة الحضانة تسعٍ وعشرين يوماً الى واحدٍ ثلاثين يوماً ، وتكون الحضانة متبادلة بين الذكر والأنثى ؛ فالأنثى تراعيه صباحًا ؛ والذكر يراعيه ليلًا .

٣- القطا المُرقط (الكُدري) : هذا اللون من القطا بطئ الحركة على الأرض ، ويتواجد في المناطق الشمالية من الكويت ، أما الأسود الكُدري فيعيش في المناطق الصحراوية الرملية التي تكثر فيها النباتات والشجيرات الكثيفة ، لأنَّها تتغذى على النباتات العشبية والحشرات .

٤- القطا النغاق ((العراقي)) : ويقال له القطا العربي ، ويكون صدره أبيضاً، يتراوح طوله من ((٣٣)) ثلاثٍ وثلاثين الى ((٣٧)) سبعٍ وثلاثين سم ، وله ريشتان طويلتان ؛ كما يتميزُ بصوته القوي الذي يمكن سماعه من مسافات بعيدة ؛ ويتميز ذكر هذا النوع عن الأنثى بوجود حلقتين لونهما أسود على الحلق والحنجرة ، ولون الجناح عنابي ، أما الأنثى ففيها ثلاث حلقات بلونٍ أسودٍ على الحنجرة والحلق ، لونها أبيض ؛ وتضع أنثى هذا النوع من القطا ثلاث بيضاتٍ تكون مدة حضانتها واحدٍ وعشرين يوماً الى اثنين وعشرين يوماً ، يقوم الذكر بإطعام الصغار عن طريق الماء المخزون في ريش بطنه وهذا النوع قليل جدًا ويعيش بعضًا منه في المغرب العربي .

٥- وهناك نوع أخر من القطا يسمى البوزري الذي يمتاز بقصر ذيله ، ولا يتجاوز طول هذه القطاة الـ ((٢٥)) خمسٍ وعشرين سم ، وهو بحجم طائر القمُري المعروف (٦) .

٦- أما أصغر أنواع القطا فهو الأحيمر ، وهو صغير الحجم لا يتجاوز طوله ((٨)) ثماني سنتيمترات ، ويعيش في المناطق الصحراوية الرملية (٧) .

٧- وهناك أنواع أخرى من القطا تتجاوز الـ ((١٥)) خمسة عشر نوعًا أبرزها نوع ياليسي الذي يتراوح طوله بين ((٣٥)) خمسٍ ثلاثين سم و ((٤١)) واحد وأربعين سم (٨) .

عرف العرب طير القطاة منذ القدم فهي تعيش معهم في جزيرتهم ، ويخرجون في رحلات الطرد والقنص لاصطيادها ؛ فقد ذكروها في أشعارهم وأمثالهم كثيرًا ؛ كما جاء ذكرها في الإسلام في الحديث الشريف فقد قال رسول

الله محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) (٩) : (من بنى مسجداً كمفحص قطاةٍ ، بنى الله له بيتاً في الجنة) ، وقد ذكروا القطاة في الأمثال فقالوا (١٠) :

- أهدى من قطاة
- أدل من قطاة
- فلان رأسه رأس قطاة

فقد ذكر شعراء الجاهلية القطاة في لوحة الرحلة في صراعها مع الصقر ، فقد شبه زُهير بن أبي سلمى سرعة فرسه بقطاةٍ أبصرها صقرٌ، فارتعبتْ فرائصها ، وأسرعتْ في طيرانها لعلها تنجو من مخالبه القاتلة ، والمعروف أنَّ الخائف يعدو أو يطير بأقصى سرعته ، وهو لا يشعرُ بالتعب ، لأنَّ الفرارَ من الموت يُنسي المخلوق التعب ، ولا يشعر به إلا بعد أن يصل إلى مأمنه ؛ فقال(١١) :

كأنَّها من قَطا مرَّانٍ جانئـــةٌ

فالجدُّ منها أمام السّرْبِ والسَّرعُ (١٢)

تهوي كذلك والأعداد وجهتُـــها

إذ راعها لحفيفٍ خلفها فـزَعُ

من عاقصٍ أمغر الساقينِ منصلتِ

في الخدِّ منهُ إذا اسـتبقتهُ ســفعُ

مسـتجمعٍ قلبهُ طـرق قوادمــهُ

يدنو من الأرضِ طوراً ثم يرتفعُ

أهوى لها فانتحتْ كالطَّرف جانحة

ثم اسـتمر عليها وهو مُختضِعُ

من مرقبٍ في ذرى خلقاءَ راسـية

حُجنُ المخالبِ لا يغتالهُ الشـبعُ

جُونيَّـة كـقري السَّــلم واثـقــةٌ

نفســاً بما سـوف تـُوليهِ وتتّدعُ

ما الطرفُ أسرعُ منها حينَ يرعبها

جدُّ المُرجي فلا يأسٌ ولا طمـعُ

حتى إذا قبضتْ أولى أظفـــارهِ

منها وأوشــكَ بما تخشـــهُ يقعُ

حثَّ عليها ، بصكٍّ ، ليس مـُؤتليــاً

بل هـو لأمثالها مـن مثلهِ يدعُ

كذاك تيكَ وقـد جـدَّ النجاءُ بـها

والخيلُ تحت عجاج الروعِ تمتزعُ

شبه زُهير بن أبي سلمى فرسه التي أعـدها للحرب بقطاةٍ تطيرُ مطمئنةً مع سربٍ من قَطا مران وهي عطشى ، وقد اقتربت من الأرض لتشرب الماء ، والقطا من الطيور التي ترتفع عالياً في طيرانها ، ولا تطير قريبة من الأرض إلا عندما تريد شرب الماء وتناول الطعام ، وهذه القطاة المسكينة وهي تطير مع سربها ، سمعت حفيف جناحي الصقر خلفها ، وهو يطيرُ قريباً منها ، فتخلتْ عن شرب الماء ، وأسرعت في طيرانها أمام السرب ، لأنَّها تعرف أنَّ الحفاظ على الحياة أهم من شرب الماء ، فالمرعوب الذي يرفرفُ الموتُ فوق رأسه لا يشعر بالعطش والجوع والتعب ، بل عليه يواصل عدوه وطيرانه ليتوارى عن أماكن الخطر ، لأنَّ إرادة الموت أقوى من إرادة الخوف ، وهكذا كانت فرس زُهير تعدو بهذه السرعة ، لتمكنه من إدراك عدوه إنْ أراد اللحاق به .

أما الشعراء العُشاق فإنَّ لهم موقفًا مختلفاً عن موقف الشعراء الفرسان ، فقد كان الشاعر المُتيم أرقاً لا يستطيع النوم ، فيمرُ من فوق رأسه سربٌ القَطا ، وهي تصفر ، وهذا قيس بن الملوح يخاطب سرب القطا بعد أنْ مرت من فوقه قائلًا (١٣) :

بكيتُ على سرب القَطا إذْ مررن بي فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جديـــرُ
أ سربُ القَطا هل من مُعيرٍ جناحـــهُ لعلّي الى من قد هويتُ أطيرُ
وأيّ قطاةٍ لم تعرني جناحهـــــــا فعاشتْ بضُرٍ والجناح كسيرُ
فجاوبنني من فوقِ غصنِ أراكـــةٍ ألا كُلنا يا مستعيرُ نُعيـــــــرُ

هذه رحلتي مع القطاة وأتمنى ان تكون قد أعجبتكم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمّد واله وسلم .

الهوامش :

١- افحوصتها : عشها ويكون في الأرض

٢- معجم الوسيط ينظر المعجم مادة : قطا

٣- هذه المعلومات مصدرها النت

٤- ينظر معجم الوسيط مادة : قطا

٥- معلومات عن طائر القطا : نت

٦- القطاة دليلة الشعراء ومعشوقة الصراء – نت

٧- المصدر السابق نفسه

٨- المصدر السابق نفسه

٩- التاريخ الكبير للبخاري : ١ / ٣٣٥ ، سنن ابن ماجة : ٧٣٨ ، صحيح ابن حبان : ١٦١٠

١٠- ينظر كتب الأمثال

١١- شعر زُهير : ٢٥١ – ٢٥٣

١٢- جانئة : هي القَطاةُ التي تُدني صدرها من الأرض منعطفة للوقوع على الماء .

١٣- ديوان مجنون ليلى : ٩٨ والبيت الرابع أخلتْ به رواية الديوان

المصادر

- التاريخ الكبير – محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعفي البخاري ، دائرة المعارف العثمانية ، ٢٠٠٨م .
- جمهرة الأمثال – لأبي هلال العسكري
- ديوان مجنون ليلى – شرحه وضبطه وقدم له محمد على شمس الدين ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، بيروت لبنان .
- سنن ابن ماجة – لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الاحياء / فيصل عيس البابي الحلبي.
- شعر زُهير بن أبي سلمى - صنعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق د . فخرالدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، بيروت .
- صحيح ابن حبان – ترتيب ابن بلبان ، تحقيق شُعيب الأرنؤوط ، ٢٠٠٩م .
- معجم الوسيط – من اصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة ، ط ٥ ، ٢٠١١م ، مصر .

المقالة السادسة عشر

مآلات المخطوط العربي

مآلات المخطوط العربي

الكتاب العربي القديم ، أو ما يعرف اصطلاحًا بالمخطوط ، تعرض للإعدام عدة مرات ؛ ولكنَّ أشهر تلك الإعدامات ، ثلاث مرات هي : غزو المغول لبغداد منذ انطلاقهم من منغوليا حتى وصولهم الى بغداد ، فقد اعدموا من الكتب والوثائق ما لا يعلم أعدادها إلا الله ، وتكفي إشارة التاريخ الى أنَّ مياه نهر دجلة تحولت الى اللون الأزرق لكثرة ما ألقي فيها من المخطوطات ، وذلك إبان سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ ، والثانية هي حرق مكتبات الدولة الفاطمية وتدميرها على يد الصليبيين إبان سقوط الدولة الفاطمية في مصر وشمال افريقيا، والثالثة وهي المأساة الكبرى ، والتي تمثلت في سقوط الأندلس ، واعدام مع احراق كل الكتب العربية في ساحة الحمراء ، بأمر من ما يُسمى بقائد حملة الاسترداد ، وبعد ذلك ندموا على ما فعلوا ، وانتقلوا الى دورٍ جديدٍ تمثل في جمع المخطوطات وحبسها في مكتبات الأديرة والكنائس وعدَّها من الكتب الممنوعة والمحجوبة عن القراء والباحثين ، وسأضرب مثالين على ما تقدم لكي لا أطيل :

المثال الأول : بعد سقوط غرناطة سنة ٨٦٨هـ - ١٤٩٢م ؛ وهي آخرُ معقلٍ من معاقلِ العرب المسلمين في الأندلس ، وبهدف القضاء على ثقافة العرب المسلمين ، وحضارتهم الإسلامية ، واستئصال وجودهم العربي الإسلامي فيها ، أقيم حفلٌ ديني كبير جدًا في مدينة طُليطلة ، بأمرٍ من مطرانِها ، تم فيه حرقُ مئات الألاف من المخطوطات العربية الإسلامية ، ولم يستثنَ من الحرقِ سوى كتب الطب التي أهديتْ الى جامعة هالة ، وتم الاحتفاظ بالقسم الآخر في قصر الأسكوريال (١) .

المثال الثاني : في سنة ٩٢١هـ - ١٥١٥م أصدرت اسبانيا قانونًا أجازتْ فيه حرق المؤلفات العربية الإسلامية ، وبموجب هذا القانون الجائر ، تم احراق مئات الألاف من المخطوطات العربية الإسلامية (٢) .

ولابد من الإشارة الى إنَّ أقدم محاولات الحرق ، كانت حرقُ مخطوطات دار العلم في طرابلس سنة ٥٠٢هـ - ١١٠٩م ، حينما دخلها

الصليبيون ، وأمر قائد الصليبيين صنجل بأحراق ما يزيد على ثلاثة ملايين مخطوطة ، مدعيًا أنَّها تخالف الانجيل (٣) .

تعرض المخطوط العربي الإسلامي للإعتقال والحبس الشديد المؤبد على يدِّ إدارات الفاتيكان المتعاقبة ، وذلك من خلال الإيعاز الى عملائها بتقييد حركة المخطوط العربي الإسلامي ومنع انتشاره ، لأنَّهُ يمثل خطرًا على المسيحية وفكرها وقادتها ، لذا أصدر بابا الفاتيكان أمرًا بابويًا ، أمر بموجبه أن لا يخرج أيّ كتابٍ عربي إسلامي خارج الأديرة والكنائس ، وطبق هذا الأمر البابوي عندما عملوا فهارس للمكتبات التي يديرها الفاتيكان ويشرف عليها ، وبموجب هذا الامر لا يسمحُ لأي مكتبة حتى لاسبانيا حاضنة المكتبات بالاطلاع عليها أو اقتناء نسخة منها (٤) .

ومن جانب آخر سعى تُجار التُحف والرحالة الأوربيين ، وبتشجيع مباشر من إدارات الفاتيكان والمؤسسات الرسمية الأوربية ، من خلال مبعوثيها ووكلائها وقناصلها الذين أرسلوا الى الشرق لشراء المخطوطات العربية لتزيين مكتباتهم وأديرتهم وقصورهم بها (٥) .

وفي سنة ١٥٨٣م أرسل البابا جرجوري الثامن (١٥٧٢ – ١٥٨٥م) رجالًا من الكنيسة الى الشرق لشراء وجمع المخطوطات الشرقية العربية الإسلامية ، فعاد هؤلاء بمجاميع كبيرة من المخطوطات ، ولاسيما المستشرق بيونارد آبل (٦) ، الذي جمع كمية كبيرة من المخطوطات من مدينتي القاهرة وحلب فقط (٧) ، وفي هذا الصدد قال أبو الحسن التمجروني (ت١٠٠٣هـ) أنَّهُ توجه الى اسطنبول يحمل رسالة من سلطان المغرب أحمد منصور الذهبي ، الى السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٥م) (٨) ، يقول فيها : (إنَّ أسواق إسطنبول تعجُ بعددٍ كبيرٍ من المخطوطات العربية والشرقية ، وأنَّ هذه المخطوطات تصل اليها من مختلف انحاء العالم ؛ وأنَّ الله وفقه الى حمل عدد كبير منها) ، وقد أكد هذه الحقيقة الرحالة الفرنسي غالان (٩ Antoine galland) (٩) الذي قضى عامي ١٨٠٣ – ١٨٠٤م في إسطنبول يقتني من دكاكين الوراقين المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي زود بها مكتبة الملك (Bibliotheque Du Roi) في باريس (١٠) .

ويذكرُ لنا التاريخ أنَّ أكبرَ عملية قرصنة تعرض لها المخطوط العربي الإسلامي كانت في سنة ١٦٠٩م عندما تعرضتْ خزانة كتب الأمير زيدان السعدي في عهد الملك فليب الثالث ١١١ Phihippe ، فقد استولى القائد الاسباني بيدرو دي لاراتام على ثلاث سفن في عرض البحر المتوسط محملة بالمخطوطات ، وكان عدد هذه المخطوطات هو ٣٩٨٠ مخطوطة عربية اسلامية تعود ملكيتها الى الأمير زيدان السعدي سلطان مراكش ، وبعد الاستيلاء عليها تم حبسها في دير القديس لورنس ، وحجبت عن الأنظار ، وقد تسببت هذه العملية بأزمة دبلوماسية كبيرة بين البلدين ، وحاولت المغرب استعادتها بشتى الطرق ولكن بدون جدوى ، فقد احتفظت بها اسبانيا قسرًا واغتصابًا ، الى حين انتهاء المفاوضات ، ومن ثم قررت الحكومة الاسبانية ضمها الى مكتبة الاسكوريال في عام ١٦٢١م ، وبها بلغ عدد مخطوطات مكتبة الاسكوريال عشرة الاف مخطوط بعد ان كانت تضم أربعة الاف مخطوط قبل أسر مكتبة الأمير زيدان السعدي(١١).

وفي بعض الأحيان يبحثون عن كتابٍ معين ، فقد طلب تاجر الكتب الانكليزي نيو بري من زميله تاجر الكتب في مدينة اسكفورد ، أن يبحث له عن المخطوطات العربية النادرة ، لشرائها لحسابه الخاص ، فكتب إليه في ٢٨ نيسان من سنة ١٥٨٣م : (سألت كثيرًا في طرابلس بسوريا عن مخطوطة وصف البلدان لأبي الفداء ، ولم أعثر عليها ، وربما يكون العثور عليها في بلاد فارس كما ابلغني البعض ، سأبحث عنها في بابل والبصرة ، وحالما سأجدها سأرسلها لك) (١٢) .

المكتبة الوطنية في باريس :

بعد أنْ تعرض المخطوط العربي الإسلامي للإعدام علي يد المغول والصليبين والاسبان والاعتقال من الكنيسة البابوية ، تنبه الاسبان والفرنسيين والهولنديين الى الخطأ الذي ارتكبوه بحقِّ المخطوطات العربية الإسلامية ؛ فحاولوا معالجة خطأهم من خلال جمع المخطوطات التي كانت خارج أوربا عن طريق الشراء بوساطة السماسرة المخطوطات ؛ وتجار الكتب ، والمستشرقون ؛ والمبشرون ولكنَّ هذه الخطوة على الرغم من جودتها إلا الفاتيكان والبابوات ؛

وظفوها لصالح مكتبات الفاتيكان حتى وصلت الى درجة الاحتكار الى حبس المخطوطات ؛ وعدم السماح للقراء والباحثين بالوصول إليها ، لذلك حدثت الانعطافة الجديدة من خلال قيام العواصم والمدن الأوربية بتأسيس مكتبات خاصة بها ، تكون غير مرتبطة بالكنيسة ولا بالفاتيكان ، وكانت البذرة الأولى المكتبة الوطنية (القومية) في باريس ، فبعد أنْ بانَ فقرُ المكتبات الأوربية أمام المكتبات العربية الإسلامية سعتْ بعض الدول الأوربية الى إنشاء مكتبات تضاهي المكتبات العربية الإسلامية ، ففي القرن الثالث عشر الميلادي ، شرع لويس التاسع ملك فرنسا حينذاك وعندما كان قائداً للحملات الصليبية على الشرق، بعد أنْ علم من أتباعه أنَّ أمراء المسلمين يمتلكون كتباً خاصة يطالعونها في أوقات فراغهم (١٣) ، سعى للحصول على مخطوطات شرقية ، وأدى المبشرون ، والرحالة ، والدبلوماسيون أدوارًا كبيرة في اقتناء الكتب والاستيلاء عليها منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وتلتها محاولات أخرى تمخضت عن تأسيس المكتبة الوطنية (biblotheque nationale) في باريس (١٤) ؛ فقد تأسست المكتبة الوطنية الفرنسية سنة ١٥٣٦م (١٥) ؛ إذ كان عدد المخطوطات الشرقية العربية لا يتجاوز الأربعين مخطوطًا ، وبعد انفتاح الملك لويس الرابع عشر على الدول الشرقية ، ارتفع عدد مقتنيات المكتبة من المخطوطات بشكل ملحوظ ، حتى بلغ مجموعات الكتب المخطوطة ((٢١)) واحدٍ وعشرين الف مخوطٍ منها ((٧٢٠٠)) سبعة ألاف ومائتين بالغة العربية (١٦) ، وذلك بسبب ارسال البعثات الى الشرق لجمع المخطوطات ، وكان يقود هذه العمليات ، ويشرف عليها الوزير كلبرت (Collbert) الذي ضُمتْ مكتبته الشخصية بعد وفاته الى المكتبة الوطنية ، وكانت تحتوي على (١٧٣٢) مخطوطاً (١٧) ، والى الآن ما زالت هذه المخطوطات تحمل رقم المكتبة القديم ((bertcol)) كلبرت .

وبدأت المكتبة تتطور تتوسع بمرور الأيام والسنين ، ففي القرن التاسع عشر اقتنت المكتبة الوطنية في باريس أكبر عدد من المخطوطات حينما كان المستشرق ساسي (Sacy) أميناً عاماً لها (١٨) ، وفي ثلاثينيات القرن التاسع عشر أهدى مدير المدرسة الفرنسية بإستنبول المكتبة الوطنية في باريس ستين مخطوطًا عربيًا (١٩) ؛ كما شهد العقد الأخير من القرن إضافتين كبيرتين مهمتين من المخطوطات ؛ فقد ضمت الإضافة الأولى (٥١٨) مخطوطاً استولى عليها

الفرنسيون من غرب افريقيا سنة ١٨٩٢م ، وكانت الإضافة الثانية في سنة ١٨٩٩م ، وكانت تمثل (٧٠٠) مخطوطًا جلبها أحد المستشرقين من الشرق (٢٠).

واليوم تضم المكتبة الوطنية (القومية) في باريس مجموعة كبيرة من المخطوطات الإسلامية بمختلف اللغات من بينها (٧٢٠٠) باللغة العربية ، فضلاً عن (٤٣٥) باللغة السريانية (٢١) ، وذكر الدكتور سامي مكي العاني في كتابه المكتبة والبحث ، أنَّ مقتنيات المكتبة الوطنية اليوم يزيد على ستة ملايين كتاب فضلًا عن ستة ملايين مجلد وألف مخطوط ، مع (٤٠٠) ألف خارطة متنوعة المعارف والعلوم (٢٢) .

الهوامش :

١- العلاقات المغربية الاسبانية أثر اختطاف خزانة السعدَيْن : ١١٩

٢- المكتبات العربية في الأندلس – ترجمة كاظم سعد الدين ؛ نشره في مجلة الجزيرة العدد ١٠ لسنة ١٩٤٨م ؛ ص ٤٣

٣- مصائب الكتب وويلاتها للباحث إسماعيل فرج :

٤- جهود المستشرقين ومناهجهم في فهرسة المخطوطات العربية – لعادل سليمان جمال ؛ القاهرة ١٩٩٩م : ٢٣٦

٥- أثر المستشرقين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية ؛ بحث للسيد محمد كرد علي نشره في مجلة المجمع العلمي العربي السوري ؛ دمشق ؛ في الجزء العاشر ؛ في شهر تشرين أول من سنة ١٩٢٧م : ٤٣٨

٦- المستشرق بيونارد آبل من سكان مالطا ؛ كان يجيد اللغة العربية إجادة تامة ؛ مكث اربع سنوات في مدن الشرق المختلفة ؛ جهود المستشرقين – عادل سليمان جمال : ٢٤٥

٧- المصدر السابق نفسه : ٢٤٥

٨- السلطان أحمد منصور الذهبي هو سلطان فاس ؛ كانت له عناية كبيرة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها ؛ انتقلت مكتبته من بعد وفاته ولده في

مراكش سنة ١٦٠٣م اتصل بعلماء الدولة العثمانية وعلماء الحرمين الشريفين ؛ ينظر العلاقات المغربية الاسبانية للسيد أحمد شوقي : ١٢٢ – ١٢٣

٩- مستشرق ورحالة فرنسي وهو من ترجم الف ليلة وليلة ووضع كتاب المكتبة الشرقية : ينظر الاستشراق لادوارد سعيد : ٩٣

١٠- ينظر علامات التملك على المخطوطات للسيد ايمن حسين فؤاد نشره في مجلة التراثيات العدد الأول لسنة ٢٠٠٣م : ٢٠ – ٢١

١١- ينظر فهرسة المخطوط لأحمد شوقي : ١٠١

١٢- ينظر بحث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لمدينة البصرة كما أوردها الرحالة الأوربيون ؛ للكاتب فلاح حسن عبدالحسين ؛ نشره في مجلة المورد العراقية العدد الرابع لسنة ١٩٨٩م : ١٥

١٣- محمد كرد علي : أثر المستشرقين : ٤٣٧

١٤- المكتبة الوطنية الفرنسية قبل ذلك كانت تعرف بالمكتبة الملكية ومؤسسها الملك لويس الثاني الذي حكم فرنسا من سنة ١٤٩٩ الى سنة ١٥١٥م ؛ فضلا عن تفاصيل أخرى لا يسعها الهامش ؛ وللمزيد من المعلومات ينظر : أحمد شوقي : فهرسة المخطوط : ٩٩- ١٠٠ ؛ وعادل سليمان جمال : جهود المستشرقين : ٢٧٥ – ٢٨٥

١٥- المكتبة الوطنية بباريس : نت

١٦- كان مولعاً بالمخطوطات واستطاع بجهوده الشخصية ومعاضدة لويس الرابع عشر من جمع الكثير من مخطوطات المكتبات الخاصة وضمها الى المكتبة الوطنية ؛ جهود المستشرقين : ٢٧٦ – ٢٧٩م .

١٧- ساسي ولد سنة ١٧٥٧م ؛ ودرس اللغات العربية والسريانية والكلدانية والعبرية ؛ وعين معلماً في مدرسة اللغات الحية ؛ وفي عام ١٨٠٦م اختير أستاذاً في الكوليج دي فرانس ؛ ويعد من اكبر المستشرقين

الأوربيين في القرن التاسع عشر ؛ تنظر سيرته في الأعلام للزركلي : ٢ / ٢٦

١٨- جهود المستشرقين : ٢٨٢

١٩- جهود المستشرقين : ٢٨٣ - ٢٨٤

٢٠ - دور الرحالة المستشرقون والدبلوماسيون في سرقة المخطوطات من الوطن العربي بث للدكتورة ظمياء محمد عباس : ٤

٢١- المكتبة الوطنية بباريس : نت

المصادر والمراجع :

- أثر المستشرقين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية ؛ بحث للسيد محمد كرد علي نشره في مجلة المجمع العلمي العربي السوري ؛ دمشق ؛ في الجزء العاشر ؛ في شهر تشرين أول من سنة ١٩٢٧م .
- بحث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لمدينة البصرة كما أوردها الرحالة الأوربيون ؛ للكاتب فلاح حسن عبدالحسين ؛ نشره في مجلة المورد العراقية العدد الرابع لسنة ١٩٨٩م .
- جهود المستشرقين ومناهجهم في فهرسة المخطوطات العربية – لعادل سليمان جمال ؛ القاهرة ١٩٩٩م .
- دور الرحالة المستشرقون والدبلوماسيون في سرقة المخطوطات من الوطن العربي - بحث للدكتورة ظمياء محمد عباس . (بحث مخطوط)
- العلاقات المغربية الاسبانية أثر اختطاف خزانة السعدَيْن – أحمد شوقي بنبين ، ضمن كتاب دراسات في علم المخطوطات والبحث الببلوعرافي ، الدار لبيضاء ، ١٩٩٣م .
- علامات التملك على المخطوطات للسيد ايمن حسين فؤاد نشره في مجلة التراثيات العدد الأول لسنة ٢٠٠٣م .

- فهرسة المخطوط العربي في بعض البلدان المتوسطية - لأحمد شوقي بنبين ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣م .
- مصائب الكتب وويلاتها - للباحث إسماعيل فرج ، مجلة الجزيرة ، الموصل ، العدد ١٠ ، ١٩٤٨م .
- المكتبات العربية في الأندلس – ترجمة كاظم سعد الدين ؛ نشره في مجلة الجزيرة العدد ١٠ لسنة ١٩٤٨م .

فهرست المقالات

فهرست المقالات

الآيـــــــــة	١
الإهـــــــداء	٢
المقدمـــــــة	٥
المقالة الأولى :	
الوفاء من مكارم الأخلاق .	٩
المقالة الثانية :	
العهد والوفاء	١٧
المقالة الثالثة :	
اكرام النفس وصونها من الإنحراف .	٢٣
المقالة الرابعة :	
حفظ للمودة والمحبة .	٢٩
المقالة الخامسة :	
الإباء وعزة النفس .	٣٧
المقالة السادسة :	
كثرة السؤال تذهب الحياء .	٤٣
المقالة السابعة :	
الصبر على الشدائد والتجلد أمام الشامتين	٤٩

المقالة الثامنة :

الصداقة والصديق . ٥٧

المقالة التاسعة :

قراءة جديدة في مخاطبة العرب للواحد بلفظ الاثنين ٦٣

المقالة العاشرة :

مكره أخوك لا بطل. ٦٩

المقالة الحادية عشرة :

حمّاد الراوية في مجلس المهدي العباسي ٧٥

المقالة الثانية عشرة :

من دلالات المحاورة المشاجرة. ٨٣

المقالة الثالثة عشرة :

موازنة بين العقاب والنسر . ٨٩

المقالة الرابعة عشرة :

موازنة بين ثور الوحش وحمار الوحش ٩٧

المقالة الخامسة عشرة :

القطاة : أنواعها وألوانها . ١٠٧

المقالة السادسة عشرة :

مآلات المخطوط العربي . ١١٥

١- فهرست المقالات ١٢٥